



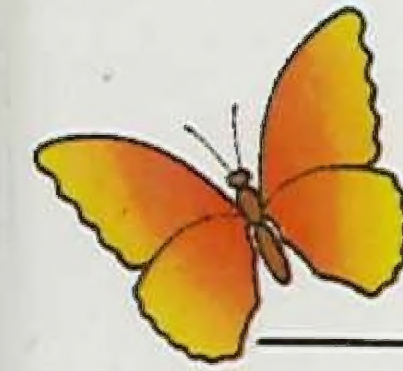
جانب إير

القِصص العالمية

٢٤

جين إير

مكتبة لبنات ناشرون



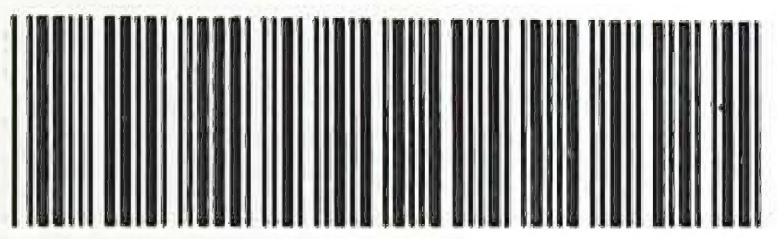
كتب الفراشة

القِصص العالمية ٢٤. جين إير

في هذه الرواية للكاتبة الإنكليزية الشهيرة شارلوت برونتي نتابع مراحل حياة بطلتها جين إير، في بيت خالها المتوفى حيث عانت من قسوة زوجته وأولاده، ثم في المدرسة الداخلية حيث كابدت متاعب ومشقات الحياة المدرسية، ثم في قصر ثورنفلد حيث عاشت أحداثاً غريبة وغامضة جعلتها تميط اللثام عن سرّ مستر روتشستر. إنها قصة النمو والانطلاق من مرحلة الطفولة إلى مرحلة النضج المستقل، وقصة المعاناة التي تزيد النفس قوة وصلابة. وهي تُعدّ من أعظم روايات الأدب الكلاسيكي عبر العصور.



مكتبة لبنات ناشرون



01C196824
JANE EYRE

كتب الفراشة - حكايات محبوبة

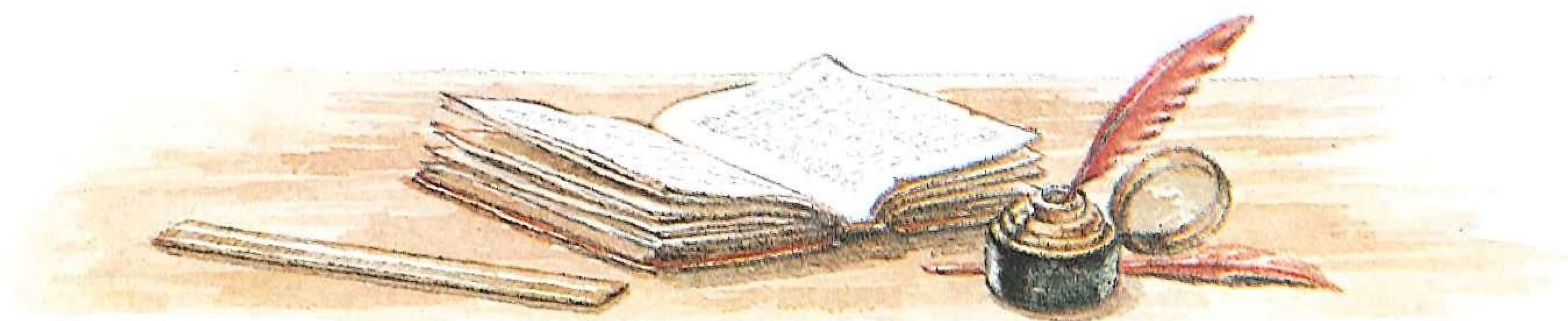
جَيْن إِيَر



تأليف: شارلوت برونتي
ترجمة: شوقي رياض السنوسي



مكتبة لبنات ناشرون



مقدمة

جين إير هي أولى روايات شارلوت برونتي التي لاقت نجاحاً مُنقطع النظير، فبعد أن نُشرت في عام ١٨٤٧ صعدت سريعاً إلى ذروة الكتب الأكثر مبيعاً، ثم ظلت واحدة من أكثر الروايات شعبيةً ورواجاً في الأدب الإنجليزي على الإطلاق. وهي قصة تأسر خيال القارئ، كما أنها ذات طبيعة درامية حفزت الكثيرين من مُنتجي الأفلام والمسلسلات التلفزيونية على إخراجها أو الاقتباس منها: ذلك أنها مُفعمة بالصور الذهنية والأحداث الدرامية بنوع خاص، الأمر الذي جعلها غايةً لمُنتجي ومُخرجي الشاشتين الكبيرة والصغيرة.

والكثير من رواية جين إير مأخوذ من قصة حياة شارلوت برونتي نفسها. فمثل جين - بطلّة القصة - كانت شارلوت فتاة بسيطةً وواضحةً، كما أنها كانت يتيمّة الأم. وكانت أيضاً مُتفوّقةً جدّاً في الدراسة، ولقد حاولت بعد ذلك أن تكسب عيشها من عملها كمربية أطفال. ويتطابق وصف شارلوت برونتي لحياة بطلّة قصتها جين في مدرسة لوود مع تجربتها الخاصة التعيسة. ففي سن الثامنة بعثوا بشارلوت بعيداً إلى المدرسة. كانت حينئذ في قمة العاسة، ولكنها لم تعد إلى البيت إلا عندما ماتت أختها - اللتان تكبرانها - بداء الدرن. وفي رواية «جين إير» نلّمح نقد شارلوت برونتي الحادّ لمتاعب ومشقات الحياة المدرسية في بعض المدارس آنذاك.

مكتبة لبنات ناشرون ش.م.ل.

زقاق البلاط - ص.ب: ٩٢٣٢-١١

بيروت - لبنان

<http://www.librairie-du-liban.com.lb>

وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

© مكتبة لبنات ناشرون ش.م.ل.

جميع الحقوق محفوظة: لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تصويره أو تخزينه أو تسجيله بأي وسيلة دون موافقة خطية من الناشر.

الطبعة الأولى: ٢٠٠٠

طبع في لبنان

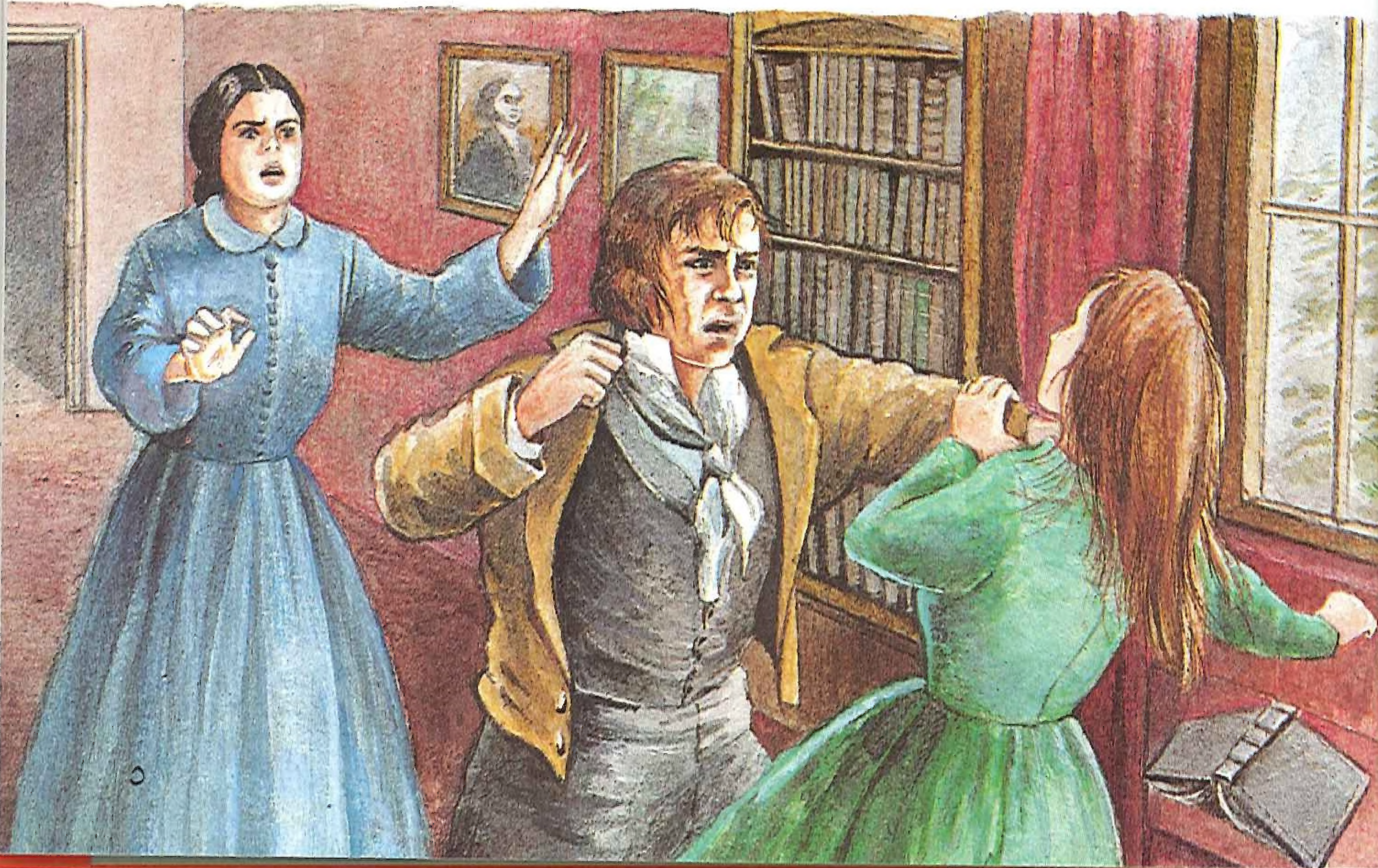
رقم الكتاب: 01C196824

جين إير

في عام ١٨١٨، وعندما كُنتُ في الثانية من عمري، تُوفِّي والداي، فأخذني خالي مستر ريد لأعيش مع أُسرتِه في جيتسهيد. ولأأسف مات هذا الخال بعد بضع سنوات، فاستبقتني زُوجتُه لأعيش في البيت مع أبنائها الثلاثة: إليزا وجون وجورجيانا. وكان هؤلاء الأبناء يُشعرونني دائماً بأنني قريبة فقيرة فرضت عليهم الأقدار تحمّل عبئها. كانوا لا يُشاركونني اللعب، ويتركونني لأسلي نفسي بنفسي.

عندما بلغت العاشرة من العمر، كُنتُ أجلس - ذات يوم - إلى جوار النافذة وأطالعُ كتاباً في هدوء، حين اقتحم الحجرة ابنُ خالي جون - وكان حينذاك فتى يافعاً - واندفع نحوي قائلاً: «بأي حق تُقرئين كُتبنا؟»

أتبع ذلك بقذف كتاب في وجهي، ثم شدَّ شعري، فصاحت في وجهه، وأخذت أجاهد للتملص من بين يديه. وما إن سمعت مسر ريد صوت العراك حتى اندفعت إلى داخل الحجرة واتخذت جانب ولدها في الحال، ثم أمرت المربية بحبسي في العُرفة الحمراء، فسارعت الأخيرة وحملتني قسراً إلى الدور العلوي بمُعاونة أحد الخدم. ودفع بي إلى داخل الحجرة، وتركتُ بها حبيسةً مُنفردةً.



كانت شارلوت برونتي شديدة الاهتمام بإبراز دور المرأة في المُجتمع الفكتوري، نسبةً إلى الملكة فكتوريا في القرن التاسع عشر، ففي تلك الحقبة من الزمان كان يُنظر إلى النساء على أنهن لا يصلحن إلا للزواج. ولكن جين - في قصتنا هذه - شأنها في ذلك شأن شارلوت نفسها في مُعترك الحياة - سعت جاهدة لكي تُؤكد استقلالها الذاتي، وكانت وسيلتها إلى ذلك أن قبلت العمل كمربية أطفال، وكابدت من خلاله مشاق جمّة لصيقة بهذه الوظيفة التي لا تُرضي غرور السيدات، وإن كانت لا تصل إلى مُستوى وظائف الخدم بحال. وقصة «جين إير» هي إحدى قصص النمو والانطلاق من مرحلة الطفولة إلى مرحلة النضج المُستقل، والمشاركة في الحب على قدم المساواة. وهي تُقاسي منذ بدء القصة حتى مُنتهاها: تُقاسي في بيت خالها المُتوفى مستر ريد من قسوة زُوجتِه وفظاظة أولادِه، وتُقاسي خلال الدراسة في لوود، وتُقاسي حين تُميط اللثام عن سرِّ مستر روتشستر. غير أن جين مُحاربة صُلدة لا تستسلم أبداً إلى مشاعر الرثاء للنفس. وهي تُرداد قوة من خلال المُعانة إلى أن ينتهي بها المطاف في ختام الرواية إلى استِشعار السعادة الكاملة في زواج أضحت هي فيه صاحبة القرار، بل وملاك النجدة، بعد أن أصاب العمى حبيبها وزُوجها المُرتقب: مستر روتشستر.

ومع أننا نستطيع أن نلمس في رواية «جين إير» عناصر كتابة السيرة الذاتية نفسها، فإنها تعدُّ عملاً روائياً أدبياً يمتُّ بصلة وثيقة إلى الخيال القصصي: ذلك أن شارلوت برونتي كانت تستوحي خيالها بالفعل عند الكتابة، كما كانت تجد مُتعة كبيرة في ترك القارئ مُعلقاً بحبال الحيرة، لا يملك سوى التخمين لاستِجلاء غوامض وأسرار جريس بوول وما يجري من أحداثٍ ليلية غريبة في ثورنفلد. ومع أن الزوجة المُختلة العقل، الحبيسة في مكان ما، هي شخصية شائعة مَظروقة في قصص الرعب، إلا أن الرواية تنطوي على ما هو أبعد من ذلك. إنها أكثر من قصة من قصص المُغامرات التي تتعلّق بها أنفاس القارئ، فهي تتصدى لقضايا أخلاقية هامة بينما هي تروي لنا - في نفس الوقت - قصة حياة البطلة بإيمانٍ وطيدٍ ومشاعر حميمة صادقة. إن ما نُحسُّه في رواية «جين إير» من تفهمٍ عاطفي عميق للإنسان في مُختلف حالاته، ومن غنى وثراء في وصف الشخصيات وتصويرها، يجعلها - بلا جدال - واحدة من أبدع روايات الأدب الإنجليزي عبر العصور.



كانت الغُرْفَةُ الحَمْرَاءُ فَسِيحَةً رَطْبَةً ، كما كان يُلْفُها السُّكُونُ الْمُطْبَقُ . وسُرْعَانِ ما غَرَبَتْ شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَالْفَيْتُ نَفْسِي وَحِيدَةً فِي الظَّلَامِ دُونِهَا شَمْعَةٌ تُبَدِّدُ وَحْشَةَ الْمَكَانِ . وكادَ قَلْبِي أَنْ يَتَوَقَّفَ عَنِ الْخَفَقِ عِنْدَ مَا لَاحَ أَمَامِي ظَنيفٌ ضَوْئِيٌّ فَوْقَ جِدَارِ الْحُجْرَةِ . وَتَصَاعَدَ الظَّنْفُ إِلَى أَعْلَى ثُمَّ أَخَذَ يَتَرَاوَعُ عَلَى سَقْفِ الْمَكَانِ . وَحَاوَلْتُ جَاهِدَةً إِقْنَاعَ نَفْسِي بِأَنَّهُ ضَوْءٌ يَنْبُعُ مِنْ مِصْبَاحٍ يَحْمِلُهُ أَحَدُ الْخَدَمِ فِي الْحَدِيقَةِ وَلَكِنْ عَبَثًا حَاوَلْتُ ، فَقَدْ اسْتَقَرَّ فِي أَعْمَاقِي أَنَّهُ شَبَحٌ . عِنْدَئِذٍ اجْتَاخَنِي رُغْبٌ هَائِلٌ ، فَأَخَذْتُ أَصْرُخُ بِصَوْتٍ عَالٍ وَأَذَقُ الْبَابَ بِعُنفٍ شَدِيدٍ .

وَعِنْدَمَا أَتَتْ بِسِي وَفَتَحَتِ الْبَابَ ، قَبَضْتُ عَلَى يَدِهَا وَأَنَا أَبْكِي قَائِلَةً : « خُذْنِي إِلَى الْخَارِجِ بِحَقِّ السَّمَاءِ ... أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ ... فِي هَذِهِ الْغُرْفَةِ شَبَحٌ » .

وَقَدِمْتُ مَسْرُودَةً صَائِحَةً فِي غَضَبٍ : « لِمَاذَا فُتِحَ هَذَا الْبَابُ ؟ »

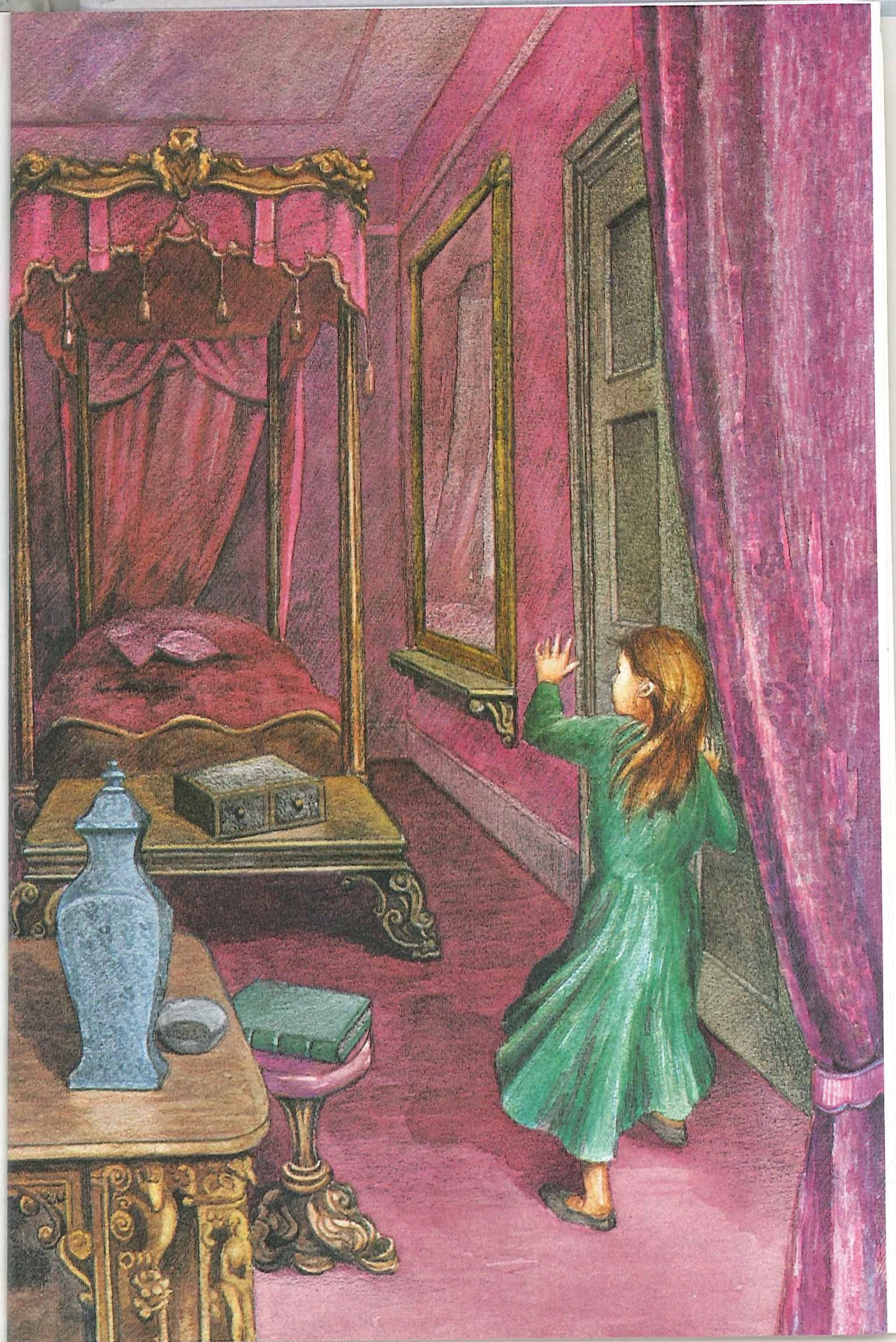
أَسْرَعَتْ بِسِي بِالْقَوْلِ : « كَانَتْ الْآنِسَةُ جِين تَصْرُخُ بِشِدَّةٍ . »

فَأَزْدَفْتُ مَسْرُودَةً : « أَحَقًّا فَعَلْتَ ؟ إِنَّهَا مُجَرَّدُ حِيلَةٍ لِتَقْلِتَ مِنْ مَحْبِسِهَا ... أَعِيدُوهَا إِلَى الدَّخْلِ فِي الْحَالِ . »

دُفِعَ بِي ثَانِيَةً إِلَى أَحَدِ أَرْكَانِ الْحُجْرَةِ الَّتِي أُحْكِمَ رِتَاجُهَا مَرَّةً أُخْرَى . وَلَمْ أَحِسَّ شَيْئًا آخَرَ ، فَقَدْ فَقَدْتُ الْوَعْيَ .

غَيْرَ أَنَّنِي لَمْ أَلْبَثُ أَنْ أَفْقْتُ فِي فِرَاشِي بَعْدَ أَنْ أُعْتِقْتُ مِنَ الْغُرْفَةِ الْحَمْرَاءِ . وَكَانَ هُنَاكَ وَهْجٌ بِهِيجٌ يَنْبُعُ مِنْ نِيرَانِ الْمِدْفَاقِ الَّتِي فِي حُجْرَةِ الْأَطْفَالِ ، فَوَقَعَ بَصَرِي عَلَى بِسِي وَهِيَ تَتَحَدَّثُ إِلَى رَجُلٍ غَرِيبٍ يَقِفُ إِلَى جِوَارِ سَرِيرِي . وَشَعَرْتُ بِالْطَّمَأْنِينَةِ حِينَ أَذْرَكْتُ أَنَّهُ مِنْ غَيْرِ سُكَّانِ الْمَنْزِلِ .

عَرَفْتُ أَنَّ اسْمَ الرَّجُلِ مَسْتَرُ لَوِيدَ وَأَنَّهُ صَيْدَلِيٌّ مِنْ أَبْنَاءِ النَّاحِيَةِ يُدَاوِي بِالْأَغْشَابِ وَالْمُسْتَحْضَرَاتِ الطَّبِيبَةِ الْمُخْتَلِفَةِ ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا وَقَعَ لِي ، وَبِأَسْبَابِ حُزْنِي وَكَرْبِي . وَبَدَأَ الرَّجُلُ بِلَوْمِي - فِي رِقَّةٍ وَلُطْفٍ - لِخَوْفِي مِنَ الْأَشْبَاحِ ، غَيْرَ أَنَّنِي سُرْعَانِ مَا أَحْسَسْتُ بِتَعَاطُفِهِ مَعِي وَاهْتِمَامِهِ بِأَمْرِي . وَلَمْ يَلْبَثُ أَنْ سَأَلَنِي مَا إِذَا كُنْتُ أَوَافِقُ عَلَى الذَّهَابِ إِلَى مَدْرَسَةِ دَاخِلِيَّةٍ ، فَأَجَبْتُ بِأَنِّي أَرْحَبُ جِدًّا بِذَلِكَ . عِنْدَئِذٍ هَبَطَ إِلَى الدَّوْرِ الْأَرْضِيِّ لِيَتَبَاَحَثَ فِي الْأَمْرِ مَعَ مَسْرُودَةٍ .





بعد رحلة مُرهقة طولها خمسون ميلاً، استغرقت مُعظم النهار، وصلتُ إلى مدرّسة لوود. وسُرعان ما دخلتُ ناظرة المدرّسة - الآنسة تيمبل - إلى الحجّرة. كانت امرأة فارعة ذات شعر أسود فاحم، تبدو عليها سيماء الرقة والعطف، وكانت في صُحبتي إحدى المُدرّسات، وتُدعى الآنسة ميللر.

التفتت الناظرة نحوي وقالت: « هذه الطُفلة أصغر من أن يُبعث بها إلى المدرّسة بمُفردها »، ثم سألتني: « هل هذه أول مرة تفتريقين عن والدك؟ »

أجبت: ليس لي والدان. فسألتني عن اسمي بالكامل وسني، وعمّا إذا كنتُ أستطيع القراءة والكتابة، ثم أذنت لي بالانصراف مع الآنسة ميللر.

وسرتُ مع الآنسة ميللر في أحد الأروقة إلى أن أتينا إلى قاعة فسيحة مُستطيلة تجلسُ فيها ثمانون فتاة على أرائك مُمتدة حول منضدتين كبيرتين. وكانت الفتيات من أعمار مُختلفة تتراوح ما بين التاسعة إلى العشرين، يرتدين عباءات بُنية ومآزر بيضاء من طراز قديم، وكُنّ مُنهمكات في الإعداد لدروس اليوم التالي. ولما فرغت المدرّسة من جُمع الكتب والكراسات من التلميذات، قدّما لنا عشاء رخيصاً سيئاً من دقيق الشوفان وماء. ثم أُمِرنا بالسير في صفوف مُنتظمة إلى غرف النوم.

كان التفكير في احتمال تَرْكي لعائلة ريد ورحيلي إلى مدرّسة داخلية يُفعم قلبي بالغبطة والسُرور، فاستعدتُ صحتي بِسرعة ملحوظة - غير أن أسابيع كثيرة مرّت دون أن يُذكر أُمامي شيء عن هذا الأمر، فظننتُ أنّه قد نسي تماماً. ولكن حدث أن أخبرتني بسي، في أحد أيام شهر يناير، بأن ربة البيت تُريد مُقابلتي في غرفة الإفطار. وهناك وجدتُ زوجة خالي جالسة مع رجل يُدعى مستر بروكلهرست، قالت إنه صاحب مدرّسة في بلدة لوود. وبدا واضحاً أنّهم قرروا إرسالني إلى تلك المدرّسة.

في ذات يوم من شهر يناير عام ١٨٢٦، رحلتُ بالعربة في الصباح الباكر إلى لوود. وفي الليلة السابقة، أخبرتني مسز ريد أن لا داعي لإيقاظها، أو إيقاظ أحد من أبنائها، لتوديعهم عند السفر. وكُنْتُ جدّ سعيدة بذلك، فلم أكن راغبة في رؤية أحد من أفراد تلك العائلة القاسية مرة أخرى.

على أن بسي - تلك الروح الشقافة العطوف - رافقتني وأنا أسير لمُلاقاة العربة عند مُفترق الطُرق. وعندما قَعَقَتْ أخيراً مُعلنة عن وُصولها، التصقتُ بسي في وداع دامع حار، إلى أن انتزعني الحارسُ عنها بِرفقٍ وأودعني داخل العربة.

ما إنْ بَرَعَ ضَوْءُ الْفَجْرِ فِي الصَّبَاحِ التَّالِي حَتَّى صَحَوْنَا جَمِيعًا مَفْرُوعِينَ عَلَى رَنِينِ جَرَسِ عَالٍ مُتَوَاصِلٍ . كَانَ الْجَوُّ شَدِيدَ الْبُرُودَةِ ، وَكَانَ لِرِزَامِنَا عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَسِلَ بِمَاءِ ثَلْجِي قَارِسٍ ، وَأَنْ نَتَشَارَكَ كُلُّ سِتِّ فَتَيَاتٍ فِي حَوْضٍ وَاحِدٍ . وَمَرَّةً أُخْرَى دَقَّ الْجَرَسُ ، فَانْتَضَمْنَا فِي صَفٍّ طَوِيلٍ ، وَهَبَطْنَا الدَّرَجَ إِلَى غُرْفَةِ رَطْبَةٍ مُعْتَمَةٍ مِنْ غُرْفِ الدَّرَاسَةِ .

وَأَخَذَ صَوْتُ الْآنِسَةِ مِلَلَرِ يَعْلُو فِي اهْتِياجٍ أَمْرًا إِيَّانَا بِالصَّمْتِ وَالسُّكُونِ ، بَيْنَمَا كَانَ يَسُودُنَا هَرْجٌ وَمَرْجٌ شَدِيدَانِ - غَيْرَ أَنَّهَمْ نَجَحُوا آخِرَ الْأَمْرِ فِي تَقْسِيمِنَا إِلَى مَجْمُوعَاتٍ بِحَسَبِ مُسْتَوَانَا الْعِلْمِيِّ ، وَاجْتِلاسٍ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ حَوْلَ مِنْضِدَةٍ كَبِيرَةٍ . وَلَقَدْ وَضَعْتُ ضِمْنِ تَلْمِيزَاتِ الصَّفِّ الْأَدْنَى . وَبَدَأْنَا حِصَّةً طَوِيلَةً فِي تَعْلُمِ الْقِرَاءَةِ .

ثُمَّ حَانَ وَقْتُ الْفُطُورِ فَسَاقُونَا إِلَى غُرْفَةِ الطَّعَامِ فِي نِظَامٍ . وَهُنَاكَ جَلَسْنَا أَمَامَ أَوْعِيَةٍ ضَخْمَةٍ مِنَ الثَّرِيدِ السَّاخِنِ يَتَصَاعَدُ مِنْهَا الْبُخَارُ . غَيْرَ أَنَّ رَائِحَةَ الثَّرِيدِ كَانَتْ مُنْفَرَّةً جِدًّا ، فَانْتَشَرَتْ هَمَسَاتُ الضِّيْقِ وَالسُّخْطِ فِي أَرْجَاءِ الْمَكَانِ .



صَاحَتِ الْفَتَيَاتُ الْأَكْبَرُ سِنًّا بِصَوْتٍ عَالٍ : « إِنَّهُ لَشَيْءٌ مُقَرَّرٌ حَقًّا ! هَذَا الثَّرِيدُ قَدْ فَسَدَ ثُمَّ أُعِيدَ عَلَيْهِ ! » لَمْ تَقُوْ غَالِبِيَّتُنَا عَلَى تَنَاوُلِ ذَلِكَ الْفُطُورِ . وَغَدُنَا جَمِيعًا إِلَى قَاعَةِ الدَّرْسِ مُتَهَفِّتَاتٍ مِنَ الْجُوعِ . وَاسْتَوْنَفَتْ دُرُوسُ الصَّبَاحِ فِي صُعُوبَةٍ بِالْغَةِ ، وَسَطَ هَمَهَمَاتِ التَّذَمُّرِ وَالسُّخْطِ . وَفِي ظَهْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، دَلَقَتِ الْآنِسَةُ تَمَبِلَ إِلَى الْقَاعَةِ لِتُلْقِيَ بَيَانٍ هَامًّا .

قَالَتْ : « أَيُّهَا الْفَتَيَاتُ : لَقَدْ قُدِّمَ إِلَيْكُنَّ هَذَا الصَّبَاحَ فُطُورٌ لَمْ تَسْتَطِيعْنَ تَنَاوُلَهُ ، وَلَا بُدَّ أَنَّكُنَّ الْآنَ تُعَانِينَ مِنَ الْجُوعِ . لِهَذَا فَقَدْ أَمَرْتُ لَكُنَّ جَمِيعًا بِوَجَبَةِ غِذَاءٍ دَسِيمَةٍ تَتَكَوَّنُ مِنَ الْجُبْنِ وَالْخُبْزِ . »

فَعَرَّتِ الْمُدَرِّسَاتُ أَفْوَاهَهُنَّ فِي تَعَجُّبٍ وَدَهْشَةٍ . فَأَضَافَتْ تَوْضِيحٌ لِهِنَّ الْأَمْرَ : « لَا عَلَيْكُنَّ . سَوْفَ أَتَحَمَّلُ شَخْصِيًّا مَسْئُولِيَّةَ هَذَا التَّصَرُّفِ . »

وَأُخْضِرَ لَنَا الْجُبْنُ وَالْخُبْزُ . وَتَمَّ تَوْزِيْعُهُ عَلَيْنَا وَسَطَ مَظَاهِرِ الْحُبُورِ وَالْإِرْتِيَاحِ الْبَالِغِينَ . ثُمَّ أَمَرْنَا بَعْدَ ذَلِكَ بِالْإِنْصِرَافِ ، فَانْطَلَقْنَا إِلَى الْحَدِيقَةِ .

كَانَ الْوَقْتُ شِتَاءً يَلْقُهُ الضَّبَابُ ، وَأَخَذْتُ أَتَجَوَّلُ فِي أَرْجَاءِ الْحَدِيقَةِ الْكَثِيَّةِ الرَّطْبَةِ ، مَحْزُونَةً الْقَلْبِ وَمُنْفَرِدَةً مَعَ أَفْكَارِي . وَلَا حَ أَمَامِي مَبْنَى الْمَدْرَسَةِ الْكَالِحُ ، وَفَوْقَ بَابِهِ كَانَ هُنَاكَ لَوْحٌ حَجَرِيٌّ يَحْمِلُ عُتْوَانًا مَنْقُوشًا يَقُولُ : « مُؤَسَّسَةُ لَوُودِ الْخَيْرِيَّةِ . هَذَا الْقِسْمُ قَدْ أُعِيدَ بِنَاؤُهُ بِوَسِيطَةِ نَاوُومِي بَرُوكِلَهْرَسْتِ » .

وَجَذَبَ التِّفَاتِي صَوْتُ سُعَالٍ عَنْ قُرْبٍ . وَالتَفْتُ فَإِذَا بِفَتَاةٍ - تَكْبُرُنِي بِقَلِيلٍ - تَجْلِسُ عَلَى أَرِيكَةٍ مُجَاوِرَةٍ . سَأَلْتُهَا : « لِمَاذَا يُسَمَّى هَذَا الْمَكَانُ مُؤَسَّسَةَ خَيْرِيَّةٍ ؟ »

فَاجَابَتْ : « لِأَنَّهُ يُعْتَبَرُ - عَلَى نَحْوِ مَا - مَدْرَسَةُ خَيْرِيَّةٍ . إِنَّ أَيَّ فِتَاةٍ هُنَا يَتِيْمَةٌ فَقَدَتْ أَحَدَ وَالِدَيْهَا أَوْ كِلَيْهِمَا ، وَيُسَدَّدُ عَنْهَا بَعْضُ الْأَقَارِبِ أَوْ الْأَصْدِقَاءِ خَمْسَةَ عَشَرَ جُنِيْهَا كُلَّ عَامٍ . لَكِنْ خَمْسَةَ عَشَرَ جُنِيْهَا فِي الْعَامِ لَيْسَ بِالْمَبْلَغِ الَّذِي يَكْفِي نَفَقَاتِ الْغِذَاءِ وَالْكِسَاءِ ، وَلِهَذَا يَقُومُ الْخَيْرِيُّونَ مِنْ أَهَالِي الْمِنْطَقَةِ بِسَدِّ الْعَجْزِ . »

قُلْتُ بَعْدَ بُرْهَةٍ مِنَ الصَّمْتِ : « وَمَنْ هِيَ نَاوُومِي بَرُوكِلَهْرَسْتِ ؟ »

أَجَابَتْ : « إِنَّهَا سَيِّدَةٌ مِنَ الْمِنْطَقَةِ قَامَتْ بِبِنَاءِ هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ . وَابْنُهَا هُوَ الَّذِي يُدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ هُنَا الْآنَ . »

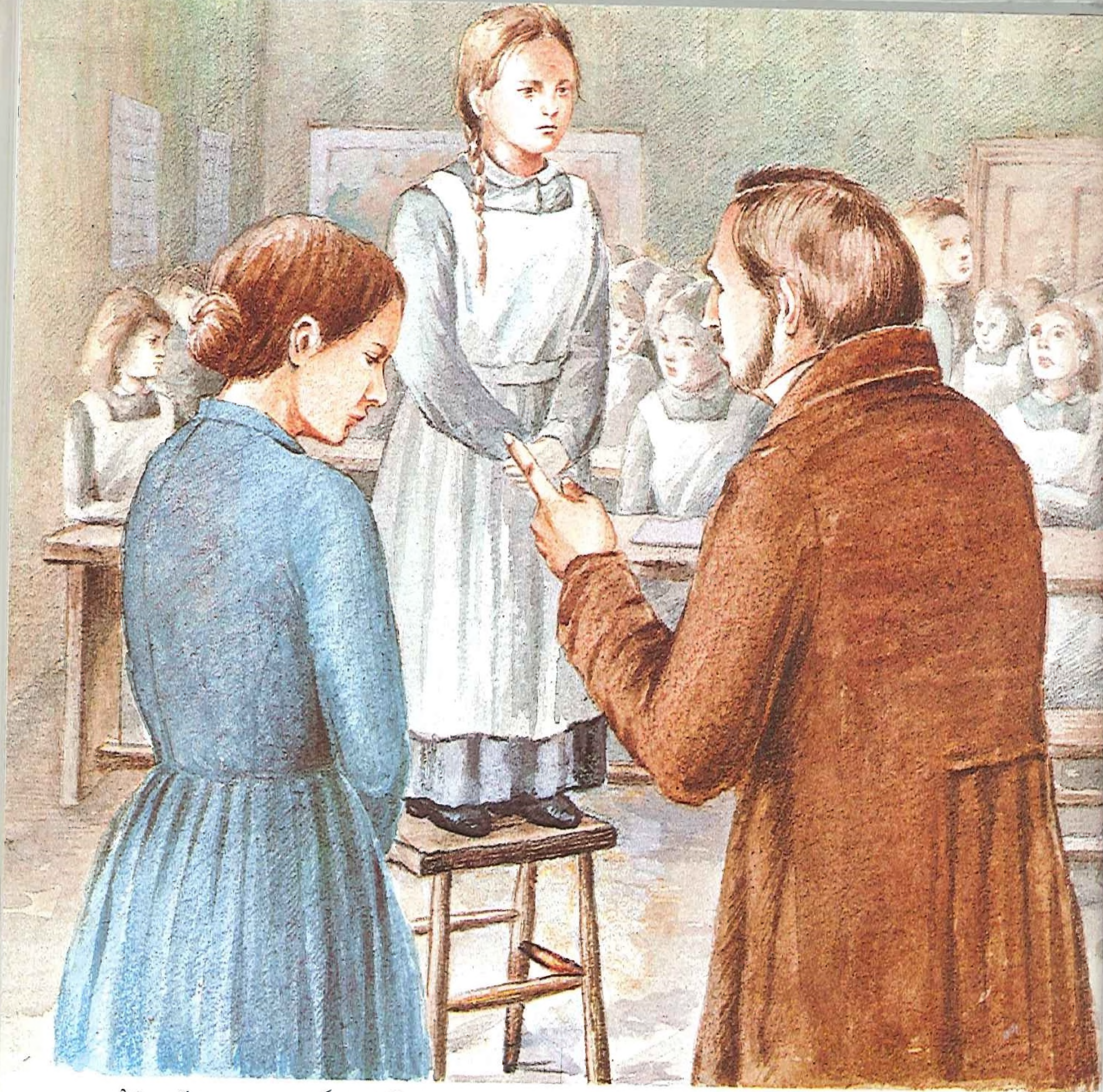
تَنَاوَلْنَا بَعْدَ حِينٍ وَجَبَةً مِنَ الْبَطَاطِسِ مَعَ قَلِيلٍ مِنَ اللَّحْمِ ، وَكَانَتْ الْوَجَبَةُ كَافِيَةً وَلَكِنْ تَقْتَرُّ إِلَى جُودَةِ الطَّهْيِ . وَانْهَمَكْنَا فِي مَزِيدٍ مِنَ الدُّرُوسِ إِلَى أَنْ أَتَوْا إِلَيْنَا فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ بِشَيْءٍ مِنَ الشَّاي وَالْخُبْزِ . بَعْدَ ذَلِكَ مُنِحْنَا فُسْحَةً لِلتَّرْوِيحِ وَاللَّعِبِ ، مُدَّتْهَا نِصْفُ سَاعَةٍ ، أَعْقَبَتْهَا فِتْرَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ الْمَذَاكِرَةِ وَالْإِعْدَادِ لِدُرُوسِ الْيَوْمِ التَّالِي . ثُمَّ صَعِدْنَا لِلنَّوْمِ بَعْدَ أَخْذِ عَشَاءٍ خَفِيفٍ ... وَكَانَ هَذَا هُوَ بَرْنَامَجُنَا الْيَوْمِيِّ .

بَدَأَ لِي الْفَصْلُ الدَّرَاسِيُّ الْأَوَّلُ فِي لَوْودٍ دَهْرًا لَا يَنْتَهِي مِنَ الْمُعَانَاةِ ، وَمِنْ مُقَاسَاةِ الْبَرْدِ وَالْجُوعِ . كَانَتْ مَلَاسِنَا هَشَّةً ، وَعَنَابِرُ نَوْمِنَا الْفَسِيحَةَ لَا يَنْبَغُ فِيهَا الدَّفْعُ كَمَا إِنَّ نِيرَانَ الْمِدْفَاءَةِ فِي قَاعَةِ الدَّرْسِ كَانَ يَحْجُبُهَا عَنِ الْفَتَيَاتِ الصَّغِيرَاتِ صَفَانٍ مِنَ الْفَتَيَاتِ الْأَكْبَرِ سِنًا وَجِسْمًا ، وَهُنَّ اللَّائِي كُنَّ يُغْرِينَنَا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ - أَوْ يُهَدِّدُنَا عَلَى الْأَرْجَحِ - كِي نُعْطِيَهُنَّ بَعْضَ أَنْصِبَتِنَا مِنَ الشَّاي وَالْخُبْزِ .

وَكَانَتْ أَيَّامُ الْآحَادِ - كَمَا أَتَذَكَّرُهَا - كَثِيبَةً مُوحِشَةً بِنَوْعٍ خَاصٍّ ، فَقَدْ كَانَ لِرِزَامًا عَلَيْنَا أَنْ نَمْشِيَ مِيلَيْنِ - مَهْمَا تَكُنْ رَدَاءَةُ الطَّقْسِ - حَتَّى نَصِلَ إِلَى الْمَبْنَى الَّذِي نَصِلِي فِيهِ . كُنَّا نَبْدَأُ تِلْكَ الرَّحْلَةَ وَنَحْنُ نَرْتَعِشُ مِنَ الْبَرْدِ ، وَنُقَاسِي فِي الْوُصُولِ إِلَى هُنَاكَ بُرُودَةً أَشَدَّ ، ثُمَّ نَجْلِسُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْقَاعَةِ الْفَسِيحَةِ الرَّطْبَةِ ، وَقَدْ تَجَمَّدْنَا مِنَ الزَّمْهِيرِ ، لِمُدَّةٍ سَاعَةٍ وَنِصْفِ سَاعَةٍ عَلَى الْأَقْلِ . وَفِي طَرِيقِ الْعُودَةِ ، كُنَّا نَسِيرُ فِي طَرِيقٍ وَعِزٍّ مَكْشُوفٍ تَلْفَحُنَا فِيهِ الرِّيحُ التَّلْجِيَّةُ ، وَتَكَادُ أَنْ تَنْتَرِعَ الْجِلْدُ مِنْ وَجْهِهَا . وَكَانَتْ الْآنِسَةُ تَمْبَلُ تُشَارِكُنَا بُؤْسَنَا ، وَتُحَاوِلُ جَاهِدَةً أَنْ تُشَجِّعَنَا عَلَى الطَّرِيقِ بِالْغِنَاءِ وَالْهُتَافِ .

لَمْ أَكُنْ قَدْ قَضَيْتُ وَقْتًُا طَوِيلًا فِي تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ حِينَ قَدِمَ إِلَيْنَا مَسْتَرُ بَرُوكْلَهْرَسْتُ فِي زِيَارَةٍ رَسْمِيَّةٍ . وَبَدَأَ بِتَأْنِيْبِ الْآنِسَةِ تَمْبَلُ تَأْنِيْبًا رَسْمِيًّا عَلَيْنَا لِتَقْدِيمِهَا وَجَبَةً إِضَافِيَّةً مِنَ الْخُبْزِ وَالْجُبْنِ لَنَا ، ثُمَّ أَبْدَى تَذَمُّرَهُ وَاسْتِيَاءَهُ مِنْ إِعْطَاءِ بَعْضِ الْفَتَيَاتِ مِثْرَتَيْنِ نَظِيفَتَيْنِ فِي أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَصْدَرَ أَمْرَهُ بِقَصِّ شُعُورِ الْبَنَاتِ ذَوَاتِ الْخُصْلِ أَوْ الشَّعْرِ الطَّوِيلِ تَخْلِيصًا لِعُقُولِهِنَّ مِنَ الْأَفْكَارِ الشَّرِّيرَةِ وَإِنْقَادًا لِأَرْوَاحِهِنَّ مِنَ الْهَلَاكِ الْأَبَدِيِّ ! وَلِسَوْءِ الْحَظِّ ، سَقَطَ كِتَابِي مِنْ يَدِي فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ . اسْتَدَارَ مَسْتَرُ بَرُوكْلَهْرَسْتُ نَحْوِي فَرَانِي ، وَعَرَفَ مَنْ أَكُونُ وَاسْتَدْعَانِي .

خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِ الصُّفُوفِ ، وَعِنْدَمَا مَرَرْتُ بِجَانِبِ الْآنِسَةِ تَمْبَلُ هَمَسَتْ لِي قَائِلَةً : « لَا تَخَافِي ، يَا جِين . أَعْلَمُ أَنَّهُ شَيْءٌ عَفْوِيٌّ » .



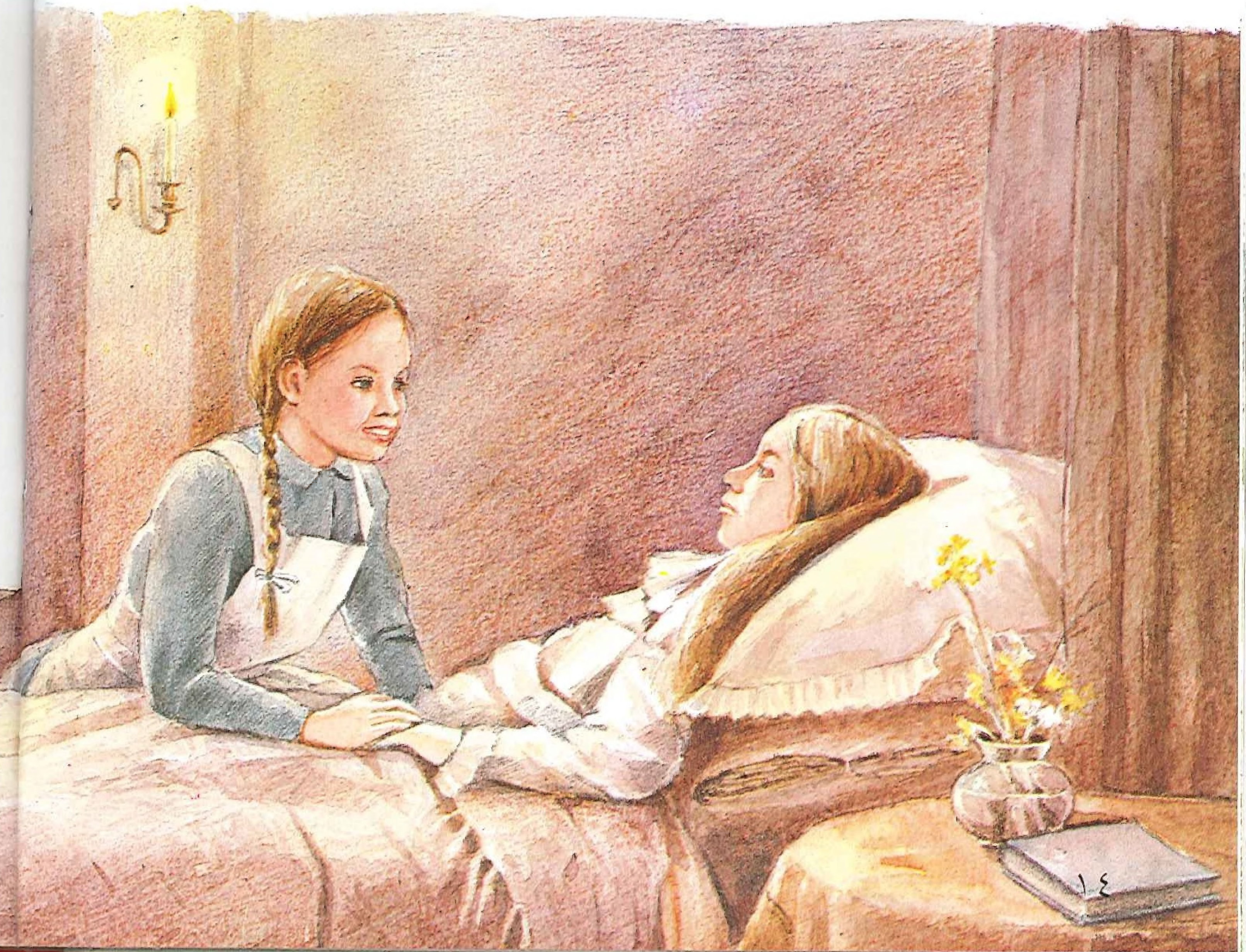
ثُمَّ أَعْلَنَ لِلْحَاضِرَاتِ جَمِيعًا : « هَلْ تَرَيْنَ هَذِهِ الطِّفْلَةَ ؟ أَرَى لِرِزَامًا عَلَيَّ أَنْ أُخْبِرُكُمْ أَنَّهَا كَاذِبَةٌ مُخَاتِلَةٌ . تَجَنَّبْنَاهَا تَمَامًا ، وَخُذْنَا مِنْهَا حَذَرَكَ . »

وَعِنْدَمَا أُذِنَ لِفَتَيَاتِ الْمَدْرَسَةِ بِالْإِنْصِرَافِ لِتَنَاوُلِ الشَّاي نَزَلْتُ مِنْ فَوْقِ الْمَقْعَدِ وَانْخَرَطْتُ فِي بُكَاءٍ مَرِيرٍ . لَقَدْ فَعَلْتُ فِي لَوْودٍ أَقْصَى مَا اسْتَطَعْتُ لِأَخْطَى بِالْمَوَدَّةِ وَالْإِحْتِرَامِ ، وَلَكِنْ حَقْدَ مَسْزَرِيدٍ وَضَغِينَتَهَا قَدْ لَاحَقَانِي أَيْضًا إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ ، مِمَّا جَعَلَنِي أَشْعُرُ بِالْقَهْرِ ! ... وَأَحْضَرْتُ لِي هِيلِينَ نَصِيبِي مِنَ الشَّاي وَالْخُبْزِ ، وَبَدَلْتُ قُصَارَى جَهْدِهَا لِتَخْلِيصِي مِنْ حُزْنِي . وَلَقَدْ أَكَّدْتُ لِي أَنَّ الْفَتَيَاتِ جَمِيعًا يَكْرَهُنَّ مَسْتَرَ بَرُوكْلَهْرَسْتُ وَلَنْ يُصَدِّقُنَّ بِحَالٍ مَا تَنَاوَلْنِي بِهِ مِنْ كَلِمَاتٍ جَارِحَةٍ .

بَعْدَ ظَهْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ دَعَتْنِي الْآنِسَةُ تَمْبِلَ - وَمَعِيَ هِيلِينَ - إِلَى غُرْفَتِهَا ، حَيْثُ طَلَبْتُ مِنِّي أَنْ أَقْصَّ عَلَيْهَا قِصَّةَ حَيَاتِي بِالتَّفْصِيلِ . وَتَطَرَّقَ الْحَدِيثُ إِلَى قِسْوَةِ مَسْرِ رِيدَ وَفَظَاطِئِهَا مَعِيَ ، وَعِنْدَمَا جَاءَ ذِكْرُ مَسْتَرِ لَوِيدَ - الصَّيْدَلِيِّ - قَالَتِ الْآنِسَةُ تَمْبِلَ : « أَنَا أَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ جَيِّدًا . سَوْفَ أَكْتُبُ لَهُ بِخُصُوصِكَ ، وَأَنَا عَلَى ثِقَةٍ تَامَّةٍ بِأَنَّهُ سَيُؤَكِّدُ جَمِيعَ أَقْوَالِكَ . إِنِّي أَصَدِّقُ تَمَامًا كُلَّ كَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ فَمِكَ . »

ثُمَّ قَبَّلَتْنِي قُبْلَةً رَقِيقَةً حَنُونًا مَنَحْتَنِي شُعورًا جَارِفًا بِالسَّعَادَةِ وَالرِّضَاءِ ، اسْتَدَارَتْ بَعْدَهَا نَحْوَ هِيلِينَ مُسْتَفْسِرَةً عَنْ صِحَّتِهَا . وَأَجَابَتْ هِيلِينَ - فِي شَجَاعَةٍ - أَنَّهَا بِخَيْرٍ ، مَعَ أَنَّهَا كَانَتْ تُعَانِي مِنْ سُعالٍ مُسْتَدِيمٍ وَأَلَمٍ فِي الصَّدْرِ .

دَعَتْنَا الْآنِسَةُ تَمْبِلَ لِتَنَاوُلِ الشَّايِ مَعَهَا ، وَأَرْسَلَتْ فِي طَلَبِ كُوبَيْنِ إِضَافِيَيْنِ . وَبَعَثَتْ مُدَبِّرَةَ الْمَنْزِلِ بِالشَّايِ ، غَيْرَ أَنَّهَا رَفَضَتْ أَنْ تُقَدِّمَ مَزِيدًا مِنَ الْخُبْزِ الْمُحَمَّصِ ، خَشْيَةَ غَضَبِ مَسْتَرِ بَرُوكْلَهْرُسْتِ . لَكِنَّ الْآنِسَةَ تَمْبِلَ سَارَعَتْ بِإِخْرَاجِ كَعْكَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ خِزَانَتِهَا ، وَتَنَاوَلْنَا ثَلَاثَتُنَا - فِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ - وَلَيْمَةً شَهِيَّةً رَائِعَةً .



بَعْدَ ذَلِكَ بِأُسْبُوعٍ ، تَسَلَّمَتِ الْآنِسَةُ تَمْبِلَ خُطَابًا مِنْ مَسْتَرِ لَوِيدَ . وَسُرَّعَانَ مَا حَشَدَتْ تَلْمِيزَاتِ الْمَدْرَسَةِ وَمُدْرَسَاتِهَا جَمِيعًا ، وَقَرَأَتْ عَلَيْهِنَّ الْخُطَابَ ، مُعْلِنَةً بِذَلِكَ بَرَاءَتِي عَلَى الْمَلَا مِنْ كُلِّ التُّهْمِ الَّتِي أَلْصَقَهَا بِي مَسْتَرُ بَرُوكْلَهْرُسْتِ .

وَأَقْبَلَ الرَّبِيعُ وَذَابَتِ الثَّلُوجُ ، فَأُضْحَتِ الْحَيَاةُ أَكْثَرَ بِهِجَةً وَإِشْرَاقًا . وَكَانَتْ لَوُودُ تَحْتَلُّ مَوْقِعًا فَرِيدًا فِي وَادٍ كَبِيرٍ غَائِرٍ تَحْفُ بِه التَّلَالُ الْمُشَجَّرَةُ ، وَيُنْسَابُ فِي وَسْطِهِ نَهْرٌ بَدِيعٌ رَائِقٌ . لَكِنَّ ذَلِكَ الْوَادِي الْجَمِيلَ الْغَنِيَّ بِالْأَشْجَارِ الْبَاسِقَةِ كَانَ مَرْتَعًا لِلضُّبَابِ الْمُتَكَثِفِ وَالْأَمْرَاضِ الْمُعْدِيَةِ لِسُوءِ الْحَطِّ ، فَاجْتَاخَ وَبَاءُ التَّيْفُوسِ لَوُودَ التَّعَسَّةِ وَطَالَ خَمْسًا وَأَرْبَعِينَ قِتَاءً ، حَصَدَ الْمَوْتَ مُعْظَمَهُنَّ .

وَكَانَتْ هِيلِينَ بِرَنَزٍ مَرِيضَةً كَذَلِكَ ، وَلَكِنْ بِمَرَضٍ غَيْرِ حُمَّى التَّيْفُوسِ . كَانَتْ تُعَانِي مِنْ دَاءِ الدَّرَنِ ، وَهُوَ دَاءٌ كُنْتُ أَظُنُّ - لِجَهْلِي - أَنَّهُ يَسِيرُ الشِّفَاءِ . وَقَدْ نُقِلْتُ إِلَى سَرِيرٍ خَالٍ بِحُجْرَةِ الْآنِسَةِ تَمْبِلَ . وَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ شَعَرْتُ بِحَنِينٍ جَارِفٍ لِرُؤْيَا صَدِيقَتِي ، فَرَحَفْتُ عَبْرَ الرُّوَاقِ إِلَى غُرْفَةِ الْآنِسَةِ تَمْبِلَ حَيْثُ وَجَدْتُ هِيلِينَ مُسْتَقِظَةً تَسْعُلُ سَعَالًا مُتَوَاصِلًا فِي شِدَّةٍ . تَطَلَّعْتُ هِيلِينَ إِلَيَّ ثُمَّ قَالَتْ فِي صَوْتٍ ضَعِيفٍ : « لِمَذَا جِئْتَ إِلَى هُنَا ، يَا جِين ؟ هَلْ جِئْتَ لِتُودِّعَنِي الْوَدَاعَ الْأَخِيرَ ؟ »

« كَلَّا ، كَلَّا ، يَا هِيلِينَ ... » - أَجَبْتُ فِي أَسَى عَمِيقٍ .

فَهَمَسَتْ لِي قَائِلَةً : « لَا تَتْرُكْنِي ، يَا جِين ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ تَبْقَى إِلَيَّ جَوَارِي . » جَلَسْتُ عَلَى حَافَةِ السَّرِيرِ وَأَمْسَكْتُ بِيَدِهَا ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ غَلَبَنِي النُّعَاسُ .

وَفِي الصَّبَاحِ التَّالِي وَجَدْتُنَا الْآنِسَةُ تَمْبِلَ مَعًا ، وَيَدَانَا مَا زَالَتَا مُتَعَانِقَتَيْنِ ، لَكِنَّ رُوحَ هِيلِينَ كَانَتْ قَدْ صَعِدَتْ إِلَى بَارِيئِهَا فِي جُنْحِ اللَّيْلِ ، تَارِكَةً إِيَّايَ فِي حُزْنٍ بَالِغٍ وَهَمٍّ مُقِيمٍ !

أَدَّتْ حِدَّةُ وَبَاءِ التَّيْفُوسِ وانتشارُهُ إلى تَحْقِيقَاتٍ واسِعَةٍ بهذا الشَّانِ ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ
الْبَرْدَ الْقَارِسَ وَسُوءَ التَّغْذِيَةِ قد أَدَيَا إلى فَقْدَانِ الْمَنَاعَةِ عِنْدَ الْفَتَيَاتِ وَضَعْفِ مُقَاوَمَتِهِنَّ
لِلْمَرَضِ . وَكَانَ أَنَّ أَقِيلَ مَسْتَرِ بَرُوكْلَهْرُسْتِ مِنْ مَنْصِبِهِ ، وَأَخَذَ مَنْ تَبَقَّى مِنَّا عَلَى قَيْدِ
الْحَيَاةِ فِي الْإِسْتِفَادَةِ مِنَ التَّحْسُنِ الَّذِي طَرَأَ عَلَى أَوْضَاعِ الدَّارِ .

هَكَذَا مَرَّتِ السَّنُونَ فِي لُؤُدَ حَيْثُ سَعِدْتُ آخِرَ الْأَمْرِ وَأَنْشَأْتُ فِيهَا صَدَاقَاتٍ
كَثِيرَةً . وَلَقَدْ قَضَيْتُ هُنَاكَ سِتَّ سَنَوَاتٍ كَتَلْمِيذَةً ، وَاثْنَتَيْنِ كَمُدْرَسَةٍ مُسَاعِدَةٍ ،
وَعَمِلْتُ بِجِدِّ وَاجْتِهَادٍ خِلَالَ تِلْكَ الْفَتْرَةِ ، فَاكْتَسَبْتُ ثَقَافَةً مُمْتَارَةً أَفَادَتْني كَثِيرًا حِينَ
اشْتَغَلْتُ بِتَدْرِيسِ الْفَتَيَاتِ الصَّغِيرَاتِ فِيمَا بَعْدُ . وَلَقَدْ أَحْبَبْتُ الْإِنْسَةَ تِمْبَلُ وَأَعْجَبْتُ
بِهَا كَثِيرًا ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ رَحَلَتْ عَنَّا لِتَتَزَوَّجَ . وَعَصَفَ فَقْدَانِي لِهَذِهِ الصَّدِيقَةِ
الْوَفِيَّةِ الْمُخْلِصَةِ بِأَمْنِي الدَّاخِلِيِّ وَاسْتِقْرَارِي ، فَأَخَذْتُ أَفْكَارِي تَتَّجِهْ إِلَى الْحُرِّيَّةِ
وَالْإِنْطِلَاقِ فِي الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ .

وَبَعْدَ تَفْكِيرٍ طَوِيلٍ قَرَّرْتُ أَنْ أُنْشُرَ إِعْلَانًا فِي إِحْدَى الصُّحُفِ أَطْلُبُ عَمَلًا
كَمُدْرَسَةٍ أَطْفَالٍ لَدَى إِحْدَى الْعَائِلَاتِ - وَكَانَ بِوُسْعِي حِينَئِذٍ أَنْ أُعْطِيَ دُرُوسًا فِي
اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَالْمُوسِيقَى وَالرَّسْمِ ، بِالإِضَافَةِ إِلَى الْمَوَادِّ الدَّرَاسِيَّةِ الْآخَرَى الْمُعْتَادَةِ
- فَتَلَقَّيْتُ بَعْدَ حِينٍ خِطَابًا وَحِيدًا مِنْ سَيِّدَةٍ تُدْعَى مَسْرَ فِيرْفَاكْسَ مِنْ قَصْرِ ثورنْفيلد
- قُرْبَ مِيلْكُوتِ - تُخْطِرُنِي فِيهِ بِأَنَّهَا قَرَأَتْ الْإِعْلَانَ الْمَنْشُورَ ، وَأَنَّهَا تَوَافَقَتْ عَلَى
إِلْحَاقِي بِالْعَمَلِ الْمَذْكُورِ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ الشَّهَادَاتِ الْمَطْلُوبَةِ وَاعْتِمَادِهَا مِنْ نَازِرَةٍ
الْمَدْرَسَةِ فِي لُؤُدَ وَمَجْلِسِ إِدَارَتِهَا ، وَأَنَّنِي سَوْفَ أَقُومُ بِتَدْرِيسِ فَتَاةٍ صَغِيرَةٍ دُونَ
الْعَاشِرَةِ لِقَاءَ مُرْتَبٍ قَدْرُهُ ثَلَاثُونَ جُنْيَهًا فِي الْعَامِ ، بِالإِضَافَةِ إِلَى الْإِقَامَةِ الْمَجَانِيَّةِ
وَتَنَاوُلِ الطَّعَامِ دَاخِلَ الْقَصْرِ .

غَادَرْتُ لُؤُدَ إِلَى مَقَرِّ عَمَلِي الْجَدِيدِ . عَلَى أَنَّنِي تَلَقَّيْتُ - قُبَيْلَ مُغَادَرَتِي إِيَّاهَا
- زِيَارَةً غَيْرَ مُتَوَقَّعَةٍ . كَانَتْ الزَّائِرَةُ هِيَ بِسِي ، صَدِيقَتِي الْقَدِيمَةُ فِي جَيْتْسَهيدِ ! ...

وَانْدَفَعَتْ كُلُّ مِنَّا إِلَى حَضَنِ الْآخَرَى فِي لِقَاءٍ حَارٍّ دَامِعٍ . وَتَحَشَّرَجَتْ فِي فَمِي
الْكَلِمَاتُ ... « بِسِي ! بِسِي ! بِسِي ! » - كَانَ هَذَا كُلُّ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَقَوَّهَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ
الْغِيَابِ الطَّوِيلِ . أَمَّا مِنْ نَاحِيَّتِهَا فَقَدْ أَخَذْتُ تَبْكِي تَارَةً وَتَضَحْكُ تَارَةً أُخْرَى ، وَلَكِنَّهَا
كَانَتْ تَهْتِفُ طِيلَةَ الْوَقْتِ : « يَا عَزِيزَتِي جِين ، هَا قَدْ التَّقِينَا مَرَّةً أُخْرَى . »

سُرْعَانَ مَا أَطْلَعْتُنِي بِسِي عَلَى أَخْبَارِ جَيْتْسَهيدِ كُلِّهَا : قَالَتْ إِنَّهَا تَزَوَّجَتْ رُوبَرْتَ
- سَائِقَ الْعَرَبَةِ - مُنْذُ بَضْعِ سَنَوَاتٍ وَأَنْجَبَتْ مِنْهُ طِفْلَتَيْنِ ، وَإِنَّهَا قَدْ أَسْمَتْ الصَّغْرَى
جِينَ كَمَا أَضَافْتُ أَنَّ أُسْرَةَ خَالِي رِيدَ لَمْ تَعْرِفْ لِلْسَّعَادَةِ سَبِيلًا عَلَى الْإِطْلَاقِ .

كَمَا أَخْبَرْتُنِي بِسِي أَيْضًا بِوَاقِعَةٍ غَرِيبَةٍ ... قَالَتْ إِنَّ رَجُلًا يُدْعَى مَسْتَرِ إِيرَ قَدْ زَارَ
جَيْتْسَهيدَ مُنْذُ سَبْعِ سَنَوَاتٍ خَصِيصًا لِيرَانِي ، وَإِنَّهُ قَدْ أُصِيبَ بِالْحُزْنِ وَالْإِحْبَاطِ عِنْدَمَا
عَلِمَ أَنَّنِي ذَهَبْتُ إِلَى مَدْرَسَةِ لُؤُدَ ، وَلَأنَّهُ لَنْ يَتِمَّكَنَ مِنْ رُؤْيَتِي قَبْلَ إِبْحَارِهِ إِلَى
الْخَارِجِ فِي السَّفِينَةِ الَّتِي كَانَتْ سَتُغَادِرُ مِينَاءَ لُنْدُنَ إِلَى مَدِيرَا بَعْدَ يَوْمَيْنِ فَقَطْ مِنْ تِلْكَ
الزَّيَارَةِ . قَالَتْ فِي حِمَاسَةٍ : « كَانَ مَسْتَرِ إِيرَ هَذَا سَيِّدًا مُهَذَّبًا لِلْغَايَةِ ، كَمَا كَانَتْ تَبْدُو
عَلَيْهِ أَمَارَاتُ النَّبْلِ وَطِيبِ الْمُحْتَدِ . وَأَظُنُّهُ قَالَ بِأَنَّهُ عَمَّكَ . »

وَتَرَكَنِي ذِكْرُ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ الْغَرِيبَةِ فِي حَيْرَةٍ شَدِيدَةٍ .



الشَّمْسِ الْمُتَسَلِّلَةِ عَبْرَ سَتَائِرِ غُرْفَتِي الْجَمِيلَةِ، أَخَذْتُ رُوحِي تَنْتَعِشُ، فَارْتَدَيْتُ
عَبَاءَ تِي السُّودَاءِ اللَّامِعَةِ بِسُرْعَةٍ، وَخَرَجْتُ إِلَى الْحَدِيقَةِ.

بَعْدَ وَقْتٍ قَصِيرٍ خَرَجْتُ مَسْرُورَةً وَمَعَهَا أَدِيلُ وَمُرَبِّئَتُهَا صُوفِي، وَكَانَ مِنْ
حُسْنِ الْحِظِّ أَنْ تَمَكَّنْتُ مِنْ مُحَادَثَتِهِمَا بِاللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ.

صَاغَتْ أَدِيلُ بِالْفَرَنْسِيَّةِ: «آه! أَنْتِ تَتَكَلَّمِينَ لُغَتِي... إِذَا فَسَوْفَ يُمَكِّنُنِي
التَّحَدُّثُ إِلَيْكَ بِسُهُولَةٍ، وَكَذَا تَسْتَطِيعُ صُوفِي... إِنَّ مَسْرُورَةَ فِيرْفَاكْسَ لَا تَتَحَدَّثُ سِوَى
الْإِنْجِلِيزِيَّةِ.»

وَتَطَرَّقَ الْحَدِيثُ إِلَى بَيْتِهَا فِي فَرَنْسَا، فَأَخْبَرْتَنِي أَنَّ أُمَّهَا قَدْ مَاتَتْ، كَمَا ذَكَرْتُ
أَنَّ مَسْتَر رُوتشستر - صَاحِبَ الْقَصْرِ - قَدْ أَتَى بِهَا إِلَى ثُورْنفيلد مُنْذُ سِتَّةِ شُهُورٍ فَقَطْ.

أَعْطَيْتُ لَهَا دُرُوسَ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ فِي قَاعَةِ الْمَكْتَبَةِ. وَعِنْدَ الظُّهْرِ طَافَتْ بِي مَسْرُورَةُ
فِيرْفَاكْسَ أَرْجَاءَ الْقَصْرِ لِاتَّعَرَّفَ عَلَى قَاعَاتِهِ الْمُخْتَلِفَةِ. كَانَتْ الْحُجُرَاتُ الرَّئِيسِيَّةُ
أَنْيَقَةً فَاحِزَةً الرِّيشِ، أَمَّا الْأَرْوَاقُ وَالْدَّهَالِيزُ فَكَانَتْ كَثِيبَةً مُعْتَمَةً. وَثَمَّةُ مَجْمُوعَةٍ مِنْ
الصُّوَرِ الشَّخْصِيَّةِ الْمُتَنَاطِرَةِ عَلَى الْجُدُرَانِ لِأَفْرَادِ الْأُسْرَةِ الْأَقْدَمِينَ بَعَثَتْ فِي نَفْسِي
خَوَاطِرَ كَثِيبَةٍ عَنِ الْأَشْبَاحِ وَالْأَرْوَاحِ. وَلَمَّا أَتَيْنَا إِلَى الدَّوَرِ الْعُلُويِّ، صَعِدْنَا مِنْهُ سُلَّمًا
خَاصًّا إِلَى سَطْحِ الْمَبْنَى، حَيْثُ وَقَفْنَا بُرْهَةً نَشْهَدُ مَنَظَرًا بَدِيعًا لِلرِّيفِ الْمُحِيطِ
بِالْقَصْرِ.

وَبَيْنَمَا نَحْنُ نَعُودُ أَذْرَاجَنَا عَبْرَ نَفْسِ السَّلَمِ، تَنَاهَى إِلَى سَمْعِي فَجَاءَةً صَوْتُ
ضِحْكَةٍ غَرِيبَةٍ مُنْبَعَثَةٍ مِنْ إِحْدَى حُجُرَاتِ الطَّابِقِ الْعُلُويِّ. وَلَمْ تَلْبَثْ تِلْكَ الضَّحْكَةُ أَنْ
تَعَالَتْ وَتَعَالَتْ، ثُمَّ تَوَقَّفَتْ عَلَى حِينٍ غَرَّةٍ. وَقَرَعْتُ مَسْرُورَةَ فِيرْفَاكْسَ فِي الْحَالِ بِأَنَّ
إِحْدَى الْغُرَفِ، فَأَظَلَّتْ مِنْ وَرَائِهِ أَمْرَأَةً مُكْتَئِزَةً ذَاتَ وَجْهِ يَنْطِقُ بِالْقُبْحِ وَالصَّرَامَةِ -
غَيْرَ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تُشَبِّهُ بِحَالِ الشَّبَحِ الَّذِي كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ أَرَاهُ.

«مَا هَذَا الصَّخَبُ الشَّدِيدُ يَا جَرِيسُ؟» - قَالَتْ مَسْرُورَةُ فِيرْفَاكْسَ. وَمَا إِنَّ عَادَتِ
الْمَرَأَةَ إِلَى حُجْرَتِهَا، حَتَّى التَفَتَتْ مَسْرُورَةُ فِيرْفَاكْسَ إِلَيَّ قَائِلَةً: «هَذِهِ الْمَرَأَةُ تُدْعَى
جَرِيسُ بُول، وَهِيَ مَنُوطَةٌ بِأَعْمَالِ الْحَيَاكَةِ فِي الْقَصْرِ.»

وَهَبَطَ كِلَانَا الدَّرَجَ فِي صَمْتٍ. وَلَكِنِّي كُنْتُ فِي عَجَبٍ لِمَا سَمِعْتُ.



فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، غَادَرْتُ لُودُودَ فِي أَمَلٍ وَاسْتِيشَارٍ. وَفِي مَسَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ
وَصَلْتُ فِي عَرَبَةٍ الْمُسَافِرِينَ إِلَى بَلَدَةِ مِيلْكُوتَ وَهُنَاكَ اسْتَقْبَلَنِي رَسُولٌ حَمَلَنِي بِعَرَبَتِهِ
الْخَاصَّةِ إِلَى قَصْرِ ثُورْنفيلد. وَعِنْدَ وُصُولِي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَرَى إِلَّا جُزْءًا يَسِيرًا مِنْ
الْقَصْرِ، فَقَدْ قَادُونِي مُبَاشَرَةً إِلَى غُرْفَةٍ بِهَيْجَةٍ وَاسِعَةٍ تَخْطِفُ فِيهَا أَضْوَاءُ الشَّمُوعِ
وَنِيرَانُ الْمِدْفَاقَةِ الْأَبْصَارِ، لَا سِيَّمَا لِلْقَادِمِ إِلَيْهَا مِنَ الظَّلَامِ الْمُخِيمِ فِي الْخَارِجِ.

نَهَضْتُ سَيِّدَةً عَجُوزَ ضَيْلَةٍ الْجِسْمِ مِنْ مَقْعِدِهَا بِقُرْبِ الْمِدْفَاقَةِ وَحَيْثُنِي فِي رِقَّةٍ
وَأَدَبٍ، ثُمَّ قَدَمْتُ نَفْسَهَا إِلَيَّ عَلَى أَنَّهَا مَسْرُورَةُ فِيرْفَاكْسَ، مُدْبِرَةُ الْمَنْزِلِ. وَسُرْعَانِ مَا
أَمَرَتِ الْخَادِمَةَ لِيَا أَنْ تُحْضِرَ لِي مَشْرُوبًا سَاخِنًا مَعَ بَضْعِ شَطَائِرَ فِي الْحَالِ ثُمَّ
أَخْبَرْتَنِي أَنَّ الْفَتَاةَ الَّتِي سَأَتَوَلَّى تَنْقِيْفَهَا لَيْسَتْ ابْنَتَهَا، وَلَكِنَّهَا طِفْلَةٌ فَرَنْسِيَّةٌ تُدْعَى:
أَدِيلُ فَارِينزُ.

وَفِي الصَّبَاحِ التَّالِي، نَهَضْتُ مِنْ فِرَاشِي بَعْدَ نَوْمٍ هَادِئٍ عَمِيقٍ. وَمَعَ أَشِيعَةِ



كانت حياتي في ثورنفيلد بهيجة ومريحة. غير أنني كثيراً ما كنت أتوق
للاتصال بالعالم الخارجي، عندئذ كنت أضع إلى سطح البيت، لأستمع بما يطل
عليه من مشهد جميل رائع. وكنت كلما صعدت أو نزلت سمعت ضحكات جريس
بوول الغريبة الشادة، وكانت تقترن في بعض الأحيان بدمدمات عنيقة تبعث في
نفسي مزیداً من الحيرة والازعاج. على أنني كثيراً ما مررت بجريس بعد ذلك على
الدرج أو في غرف وأروقة المنزل المختلفة، فلم تفض لي بشيء يميظ اللثام عن
غوامض تلك الأحداث.

وانقضت ثلاثة أشهر في سعادة وسرور. وذات صباح توجهت سيراً على
الأقدام إلى بلدة قريبة. أخذت أضع الطريق المؤدي إلى أعلى التل ميممة صوب
البلدة. ولم أكذ أسير بضع دقائق حتى اخترم السكون المحيط وقع حوافر دابة تدق
الأرض، ثم لاح لي عن بعد شبح حصان يركض نحوي بسرعة في الاتجاه المضاد.
وفي مثل لمح البصر، مرق إلى جانبي كالسهم جواد ضخم أسود يمتطيه رجل

جسور، يتقدمه كلب كبير يطوي الأرض في وثبات هائلة. وما هي إلا لحظات قصار
حتى تناهت إلى سمعي أصوات جلبة مصدرها أسفل الطريق، وكأن حادثاً ما قد وقع
هناك. وبدافع من الرغبة الصادقة في تقديم العون، عدت أدراجي على الطريق
المنحدر نفسه، فوجدت أن الجواد الذي مر بي منذ لحظات قد انزلت أقدامه
فسقط براكيه على الأرض. غير أنه سرعان ما نهض من كبوته وانطلق بعيداً تاركاً
صاحبه مستلقياً على الطريق يعاني من التواء في كاحليه. كان الرجل يناهز الأربعين
من العمر، متوسط الطول، عريض المنكبين، أسمر البشرة، ذا وجه متجهم صارم.

عرضت على الرجل أن أقصد قصر ثورنفيلد القريب طلباً للعون، وأشرت
إلى أنني مدرسة الأطفال هناك - وعند هذه الإشارة ارتسمت أمارات الدهشة على
محيائه. على أن الجواد لم يلبث أن هدأ بعد برهة، فتمكنت من اقتياده إلى صاحبه،
ومعاونة السيّد على ركوبه. وحدجني الرجل بنظرة أخرى خاطفة، ثم انطلق
بجواده.

عندما عُدْتُ بَعْدَ الظُّهْرِ إِلَى القَصْرِ بِادْرَثْنِي مَسْرُ فِيرْفَاكْس قَائِلَةً: «المستر روتشستر - صاحبُ القصر - عادَ من السَّفَر. غَيْرَ أَنَّ حَدِيثًا وَقَعَ لَهُ عَلَى الطَّرِيقِ ... لَقَدْ سَقَطَ بِجَوَادِهِ عَلَى الأَرْضِ، فَالتَوَى كاحِلُهُ ... سَوْفَ يَحْضُرُ الطَّبِيبُ - مستر كارتر - لِرُؤُوبِهِ فِي الحالِ.»

فِي اليَوْمِ التَّالِي دُعِيتُ وَبِرَفَقَتِي أَدِيل لِنَافِلِ الشَّاي مَعَ مَسْتَر روتشستر. كَانَتِ مَسْرُ فِيرْفَاكْس تَرْتَدِي ثَوْبًا جَمِيلًا، وَلَقَدْ نَصَحْتَنِي أَنَّ أَلْبَسَ فُسْتَانِي الحَرِيرِيَّ الأَسْوَدَ. وَتَوَجَّهْنَا إِلَى حَيْثُ يَجْلِسُ السَّيِّدُ مُسْنِدًا كاحِلُهُ المُصَابَ إِلَى إِحْدَى الوَسَائِدِ.

وَبَدَأَ الحَدِيثَ مَعِي فِي لَهْجَةٍ رَسْمِيَّةٍ جَاقَّةٍ، فَقَالَ: «إِجْلِسِي يَا آيسَةُ إِير.»

فَجَلَسْتُ، ثُمَّ خَيَّمْ عَلَيْنَا صَمْتُ طَوِيلٌ ... وَلَوْ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ رَقِيقًا كَيْسًا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَشَعَرْتُ إِزَاءَهُ بِالْحَرَجِ الشَّدِيدِ، وَلَكِنَّ الجَفْوَةَ وَالخُشُوعَةَ اللَّتَيْنِ اكْتَنَفَتَا ذَاكَ اللِّقَاءَ جَعَلَتَانِي هَادِئَةً وَغَيْرَ مُكْتَرِهَةٍ تَمَامًا بِمَا قَدْ يَحْدُثُ ... وَأَذْرَكْتُ فِي الحالِ أَنَّهُ المُسَافِرُ نَفْسُهُ الَّذِي التَّقِيْتُ بِهِ فِي اليَوْمِ السَّابِقِ. كَانَ يَحْمِلُ المَلَامِحَ نَفْسَهَا: الجَبْهَةُ المُرَبَّعَةُ، والشَّعْرُ الفَاحِمُ، وَالحَاجِبَيْنِ السُّودَاوَيْنِ، وَالثَّغْرَ المُتَجَهِّمَ، وَالفَكَّ المُحْكَمَ ... وَكَانَ مِنَ الوَاضِحِ أَنَّهُ يَتَمَيَّزُ بِشَخْصِيَّةٍ قَوِيَّةٍ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَبَدًا أَنِيقًا أَوْ جَذَابًا. وَبَعْدَ تَنَاوُلِ الشَّاي اسْتَدَارَ نَحْوِي وَأَمْطَرَنِي بِوَابِلٍ مِنَ الأَسْئَلَةِ:

- مِنْ أَيْنَ أَتَيْتِ يَا آيسَةُ إِير؟

- مِنْ مَدْرَسَةِ لَوُود.

- سَمِعْتُ عَنْهَا مِنْ قَبْلُ. وَكَمْ عَامًا مَكَّثَتْ فِيهَا؟

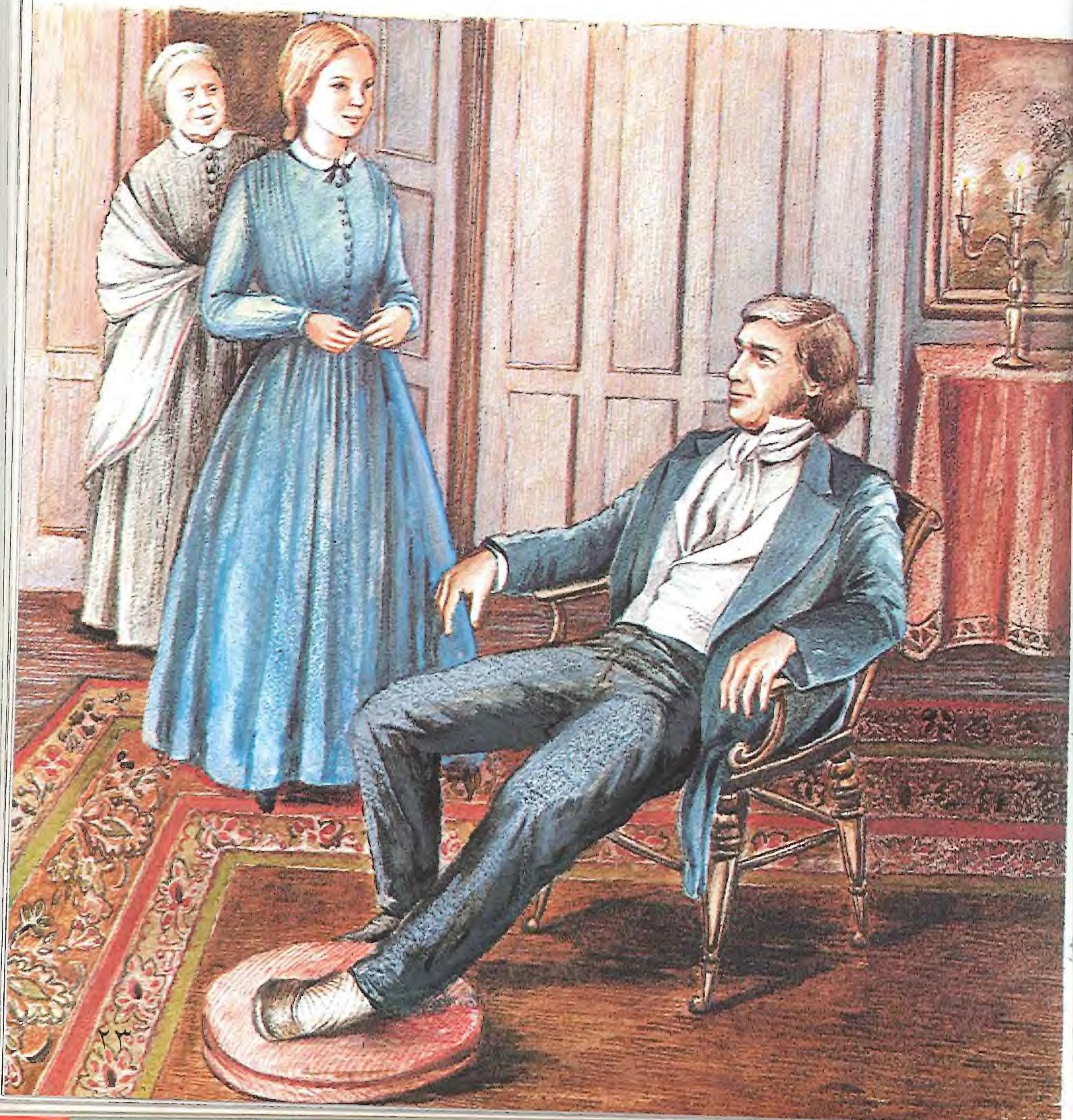
- ثَمَانِيَّةَ أَعوَامٍ.

- وَمَنْ أَشَارَ عَلَيْكَ بِالمَجِيءِ إِلَى هَذَا المَكَانِ؟

أَجَبْتُ: «لَا أَحَدَ. لَقَدْ نَشَرْتُ إِعْلَانًا أَطْلُبُ العَمَلَ كَمُدْرَسَةِ أَطْفَالٍ، فَتَلَقَّيْتُ رَدًّا مِنْ مَسْرُ فِيرْفَاكْس بِالقَبُولِ.»

يَبْدُو أَنَّ هَذِهِ الإِجَابَاتِ قَدْ أَرْضَتْ قُضُولَ مَسْتَر روتشستر إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، إِذْ انْتَقَلَ بَعْدَهَا لِلْحَدِيثِ عَنْ عَمَلِي مَعَ الصَّغِيرَةِ أَدِيل. وَأَثْنَى السَّيِّدُ عَلَى عَزْفِي عَلَى البَيَانُو، كَمَا أَبْدَى إِعْجَابَهُ التَّامَّ بِلَوْحَاتِي المَرْسُومَةِ.

ذَكَرْتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَسْرُ فِيرْفَاكْس خِلَالَ حَدِيثٍ مَعَهَا: «قُلْتُ لِي يَا مَسْرُ فِيرْفَاكْس مِنْ قَبْلُ أَنَّ مَسْتَر روتشستر لَيْسَ رَجُلًا شَاذًا أَوْ غَرِيبَ الأَطْوَارِ، غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ فَظًّا وَمُتَقَلِّبَ المِزَاجِ.»



بَعْدَ بَضْعَةِ أَيَّامٍ ، تَسَلَّمَتْ أَدِيلُ عُلْبَةً كَبِيرَةً كَهْدِيَّةً . وَبَيْنَمَا كَانَتْ مَسْرُوفَةً فِرْفَاكْسَ تُسَاعِدُهَا فِي تَفْرِيعِ مَحْتَوَيَاتِهَا ، دَعَانِي مَسْتَرُ رَوْتَشْتِرُ إِلَى الْجُلُوسِ إِلَيْهِ . وَلَقَدْ دَهَشْتُ لِهَذَا الطَّلَبِ ، غَيْرَ أَنَّني أَرَدَدْتُ دَهْشَةً عِنْدَمَا بَادَرَنِي فَجَاءَةً بِالسُّؤَالِ : « هَلْ تَرَيْنِي وَسِيمًا ، يَا أَيْسَةُ إِير ؟ »

أُخِذْتُ عَلَى حِينِ غَرَّةٍ بِهَذَا السُّؤَالِ حَتَّى أَنَّنِي سَارَعْتُ بِالْإِجَابَةِ دُونَ تَفْكِيرٍ : « كَلَّا ، يَا سَيِّدِي . »

صَاحَ قَائِلًا بِإِتْسَامَةٍ بَاهِتَةٍ : « حَسَنًا ، أَنْتِ صَرِيحَةٌ حَقًّا ... أَوْ تَظُنِّينَنِي أَحْمَقُ ؟ »
أَسْرَعْتُ قَائِلَةً : « أَنْتِ بَعِيدٌ عَنْ هَذِهِ الْمَظْنَةِ كُلِّ الْبُعْدِ ، يَا سَيِّدِي . »

قَصَّ عَلَيَّ الرَّجُلُ طَرَفًا مِنْ حَيَاتِهِ الْعَابِتَةِ الَّتِي كَانَ يَعْيشُهَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ حِمَاقَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ الطَّائِشَةِ فِي الْمَاضِي ، ثُمَّ طَلَبَ مِنِّي أَنْ أُسْدي لَهُ النَّصِيحَةَ مُخْلِصَةً . وَبَدَأَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ نَادِمًا كُلَّ الدَّامِ عَلَى مَا اقْتَرَفَ فِي سِنِّي حَيَاتِهِ السَّابِقَةِ مِنْ آثَامٍ .

عَلَى أَنَّ أَدِيلَ مَا لَبِثَتْ أَنْ جَاءَتْ تَتَقَفَّزُ فِي مَرَحٍ وَسَعَادَةٍ لِتَشْكُرَ مَسْتَرَ رَوْتَشْتِرَ عَلَى هَدِيَّتِهِ الَّتِي وَصَلَتْهَا فِي الصَّبَاحِ وَالَّتِي كَانَتْ تَرْتَدِيهَا حِينَئِذٍ بِالْفِعْلِ : فُسْتَانٌ وَرَدِّيٌّ وَجُورَبُ حَرِيرِيٌّ وَصَنْدَلٌ بَدِيعٌ . وَقَادَهُ ذَلِكَ إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ وَالِدَةِ أَدِيلَ فَقَالَ إِنَّهُ قَدْ تَعَرَّفَ عَلَيْهَا فِي بَارِيسَ .

وَوَقَعَ فِي حُبِّهَا فَأَنْفَقَ أَمْوَالَهُ عَلَيْهَا بِإِسْرَافٍ وَحِمَاقَةٍ ، وَلَكِنْ هِيَامُهُ بِهَا لَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَبَا أَوَارُهُ حِينَ اكْتَشَفَ أَنَّهَا غَيْرُ مُخْلِصَةٍ لَهُ . عَلَى أَنَّهُ أَتَى بِالصَّغِيرَةِ أَدِيلَ لِتَعِيشَ فِي قَصْرِ ثورنْفيلد ، عِنْدَمَا عَلِمَ أَنَّ أُمَّهَُا قَدْ رَحَلَتْ إِلَى إِيطَالِيَا تَارِكَةً إِيَّاهَا فِي بَارِيسَ فِي حَالَةٍ عَوَزٍ وَفَاقَةٍ .

بَعْدَ زُهَاءِ شَهْرٍ ، وَقَعَتْ لِي حَادِثَةٌ مُثِيرَةٌ لِلْقَلْقِ ، وَالْإِنْزِعَاجِ ، فَبَيْنَمَا كُنْتُ رَاقِدَةً فِي فِرَاشِي ذَاتَ لَيْلَةٍ ، سَمِعْتُ لَغْطًا فِي الدَّوَرِ الْعُلُويِّ ، أَعْقَبَهُ - بَعْدَ فِتْرَةٍ وَجِيزَةٍ - صَوْتُ احْتِكَالٍ خَفِيفٍ بِبَابِ غُرْفَةِ نَوْمِي . صَحْتُ بِصَوْتٍ عَالٍ : « مَنْ بِالْبَابِ ؟ » . وَلَمَّا لَمْ أَتَلَقَّ جَوَابًا ، ظَنَنْتُ أَنَّ الْكَلْبَ يَلُوتُ يَجُوسُ فِي الرُّوَاقِ أَمَامَ الْحُجْرَةِ . وَعِنْدَمَا شَرَعْتُ فِي التَّوَمِّ مَرَّةً أُخْرَى ، سَمِعْتُ ضِحْكَةً خَفِيضَةً خَارِجَ الْبَابِ . وَهَرَعْتُ لِأَحْكِمَ

رِتَاجَهُ ، فَطَرَقَ مَسْمَعِي وَقَعَ خُطُواتٍ تَسْحَبُ عَبْرَ الرُّوَاقِ ثُمَّ تَصْعَدُ الدَّرَجَ . وَتَبَعَ ذَلِكَ صَوْتُ بَابٍ يُعْلَقُ .

انْزَعَجْتُ لِهَذِهِ الْأَصْوَاتِ الْغَامِضَةِ فَفَتَحْتُ الْبَابَ بِحَذَرٍ لِأَتَحَرَّى الْأَمْرَ . وَفُوجِئْتُ بِرَائِحَةِ دُخَانٍ قَوِيَّةٍ وَبِرُؤْيَا شَمْعَةٍ مُشْتَعِلَةٍ مُلْقَاةٍ عَلَى الْأَرْضِ ، فَأَصَابَنِي دُغْرٌ شَدِيدٌ . وَسُرْعَانَ مَا اكْتَشَفْتُ أَنَّ الدُّخَانَ يَنْبَعِثُ مِنْ بَابِ غُرْفَةِ مَسْتَرَ رَوْتَشْتِرَ الْمَفْتُوحِ ، وَالَّتِي تَقَعُ إِلَى أَحَدِ جَانِبَيْ الرُّوَاقِ قَرِيبًا مِنْ غُرْفَتِي .





في الصُّبْحِ التَّالِي، خَفَّتِ الْخَدَمُ إِلَى تَنْظِيفِ حُجْرَةِ مِسْتَرِ روتشستر وإعادةِ
الحَالِ فِيهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ. وَعَاوَنْتْ لِيَا جَرِيسُ بُوولَ فِي حِيَاكَةِ سَتَائِرِ جَدِيدَةٍ
لِلْعُرْفَةِ. غَيْرَ أَنَّ جَرِيسَ لَمْ تَشْفِ غَلِيلِي عِنْدَمَا سَأَلْتُهَا عَنْ سَبَبِ الْحَرِيقِ، وَاكْتَفَتْ
بِإِسْدَاءِ النَّصْحِ بِأَنْ أُحْكِمَ رِتَاجَ عُرْفَتِي عِنْدَ النَّوْمِ خَشْيَةَ اللَّصُوصِ الَّذِينَ يَسْطُونُ عَلَى
الْمَنَازِلِ لَيْلاً... بَدَتْ تِلْكَ نَصِيحَةً غَرِيبَةً مُصْطَنَعَةً، وَلَقَدْ دُهْشْتُ حِينَئِذٍ لِسَيْطَرَتِهَا
الَّتَامَّةِ عَلَى أَعْصَابِهَا وَهِيَ تَتَحَدَّثُ، إِذْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي دَبَّرَتْ حَادِثَ الْحَرِيقِ.

لَمْ أَقَابِلْ مِسْتَرِ روتشستر ثَانِيَةً فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، إِذْ كَانَ قَدْ ذَهَبَ إِلَى حَفْلَةٍ فِي
بَيْتِ صَدِيقٍ يُدْعَى مِسْتَرِ إِشْتُونِ يَبْعُدُ عَنْ مِيلَكُوتِ زُهَاءِ عَشْرَةِ أَمْيَالٍ، كَمَا أَنَّهُ تَعَمَّدَ أَنْ
يَبْقَى بَعِيدًا عَنْ ثورنْفيلْدَ بَعْدَ ذَلِكَ لِمُدَّةٍ تَجَاوَزَتْ سَبْعَةَ أَيَّامٍ.

قَالَتْ لِي مِسزُ فِيرْفَاكْسُ يَوْمَئِذٍ: «أُوهُ، سَوْفَ تَكُونُ الْحَفْلَةُ لَدَى مِسْتَرِ
إِشْتُونِ شَائِقَةً لِلْغَايَةِ، إِذْ سَوْفَ تَضُمُّ مِسزَ إِشْتُونِ وَبَنَاتِهَا الثَّلَاثَ، وَلِيَدِي إِنْجِرَامُ
وَبَنَاتُهَا الْجَمِيلَتَيْنِ بِلَانْشُ وَمَارِي، وَالكَثِيرِينَ مِنْ وُجْهَاءِ الْمُجْتَمَعِ فِي هَذِهِ
الْمِنْطَقَةِ.»

إِنْدَفَعْتُ إِلَى دَاخِلِ حُجْرَتِهِ، فَوَجَدْتُهُ نَائِمًا فِي فِرَاشِهِ وَالسَّتَائِرُ تَشْتَعِلُ مِنْ
حَوْلِهِ. وَبَدَا وَكَأَنَّهُ يَخْتَنِقُ بِالدُّخَانِ، فَسَكَبْتُ مَاءً عَلَى فِرَاشِهِ كَيْمَا يَفِيقَ. وَسُرَّعَانَ مَا
خَمَدَ اللَّهَبُ وَاسْتَرَدَّ الْوَعْيَ فِي آنٍ مَعًا.

انْتَفَضَ الرَّجُلُ فَجْأَةً، وَهُوَ يَصِيحُ: «أَمَطَّرَ هَذَا أَمْ فَيْضَانُ؟»

أَجَبْتُ بِالْقَوْلِ: «كَلَّا، يَا سَيِّدِي، بَلْ نَارٌ، وَقَدْ أَفْلَتَ مِنْهَا لِحُسْنِ الْحِظِّ.»

بِذَهْنٍ مُخْتَلِطٍ مِنْ هَوْلِ مَا حَدَثَ، خَرَجَ مِسْتَرِ روتشسترُ مِنْ فِرَاشِهِ، وَجَفَّفَ
نَفْسَهُ، ثُمَّ هَرَعَ إِلَى الدَّوْرِ الْعُلُويِّ. وَسُرَّعَانَ مَا عَادَ لِيَشْكُرَنِي عَلَى إِسْرَاعِي لِنَجْدَتِهِ،
غَيْرَ أَنَّهُ أَوْصَانِي بِأَلَّا أَذْكَرَ لِأَحَدٍ شَيْئًا عَنِ الْحَرِيقِ.

بعد ذلك بأسبوعين ، كتبَ مستر روتشستر إلينا مُخبرًا بأنه سوف يعودُ إلى ثورنفلد بعد ثلاثة أيامٍ مَصحوبًا بِمَجْموعةٍ كبيرةٍ مِنَ الصَّدِيقَاتِ والأَصْدِقَاءِ ، ومعهم خَدَمُهُمْ . ولكي نُعدَّ لهذه الزَّيَارَةِ اسْتَحْدَمْنَا ثلاثَ نِسَاءٍ أُخْرَيَاتٍ .

لم تُشاركْ جريس بوول بدورٍ ما في هذه الاستعداداتِ ، غَيْرَ أَنَّهَا كانت تأتي إلى المَطْبَخِ في مَواعيدٍ مُنتظمةٍ لِتَحْمِلَ طعامَها وتعودَ به مُباشرةً إلى حُجْرَتِها . وفي ذاتِ يَوْمٍ سَمِعْتُ إحدى النِّسَاءِ اللَّائِي جِئْنَا لِلْمُعَاوَنَةِ من خارجِ القَصْرِ تَحَدَّثُ إلى الخَادِمَةِ ليا فتقولُ : « أَظُنُّ أَنَّ جريس بوول تَحْصُلُ على أَجرٍ طَيِّبٍ ؟ »

أجابَتْ ليا : « أَجَلْ ، إِنِّي - شَخْصِيًّا - أَتَقاضِي أَجْرًا لا بِأَسْرَ به ، وَلَكِنَّهَا تَتَقاضِي خَمْسَةَ أَضْعَافِهِ . على أَنَّ أَحَدًا غَيْرَهَا لا يَصْلُحُ لِمِثْلِ العَمَلِ الَّذِي تُؤَدِّيهِ . »



وما إنْ لَمَحْتَنِي ليا واقفةً عن قُرْبٍ حَتَّى ابْتَعَدَتْ بِسُرْعَةٍ ، غَيْرَ أَنَّنِي كُنْتُ قد لَحَظْتُ المَرْأَةَ وَهِيَ تُشِيرُ إِلَيَّ من طَرَفٍ خَفِيِّ وتَسأَلُها في هَمْسٍ : « أَلَمْ تَكْتَشِفِ السِّرَّ بَعْدُ ؟ »

تُرى ما هو هذا السِّرُّ الَّذِي لم أَكْتَشِفْهُ بَعْدُ ؟ ولِمَاذَا أَنَا - دونَ سائِرِ أَهْلِ البَيْتِ - أُمْنَعُ من مَعْرِفَتِهِ ؟

حَانَ يَوْمُ الخَمِيسِ . وكان مستر روتشستر والآنِسَةُ إنْجرام وشابانِ آخِرَانِ أوَّلِ مَنْ وَصَلَ إلى القَصْرِ على ظُهورِ الخَيْلِ ، ثُمَّ تَبِعَهُمُ الضُّيُوفُ الآخَرُونَ في عَرَبَاتِهِمُ الخاصَّةِ .

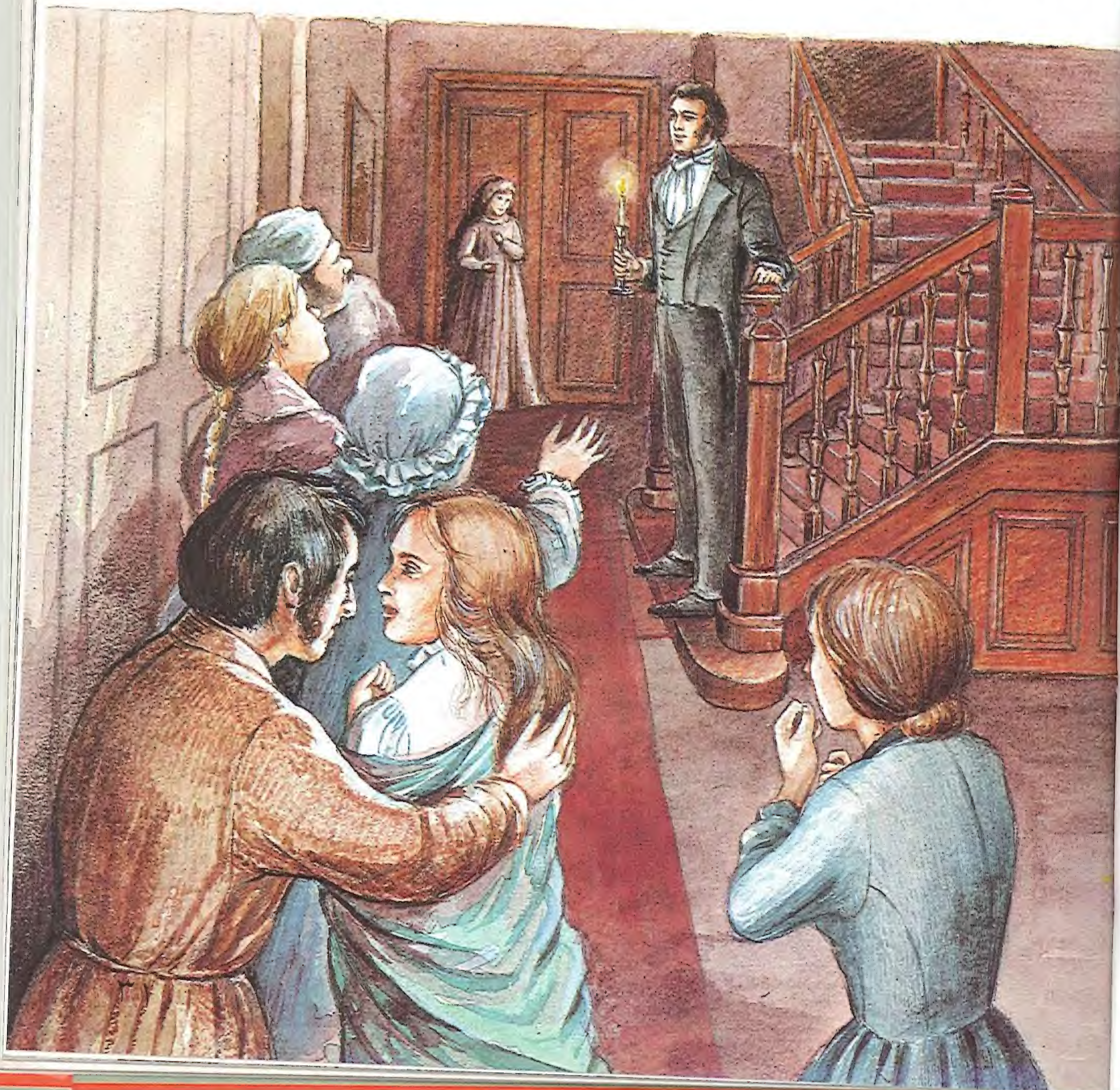
أَقِيمَ عَشاءٌ كَبِيرٌ فَاخِرٌ ذَلِكَ المَسَاءِ ، وَعَزَفَتِ المَوْسِيقَى واستَمَرَّتْ شَطْرًا كَبِيرًا مِنَ اللَّيْلِ . وفي المَسَاءِ التَّالِي تَطَرَّقَ الحَدِيثُ إلى الكَلَامِ عن مُدَرَّساتِ الأَطْفَالِ ، فَذَكَرَتْ الآنِسَةُ بِلانشِ إنْجرام نَوادِرَ سَيِّئَةٍ لِلْغَايَةِ عن بَعْضِ المُدَرَّساتِ اللَّائِي عَرَفْتَهُنَّ . عِنْدَمَا انْضَمَّ الرِّجَالُ إلى السَيِّدَاتِ بَعْدَ حِينٍ ، لَحَظْتُ أَنَّ مستر روتشستر يَقيِفُ بَعِيدًا عَنِ الآخَرِينَ .

تَرَكْتُ تلكَ الحَفْلَةَ في نَفْسِي إِنْطِبَاعًا لم أَصَادِفُهُ من قَبْلُ بِفَخَامَةٍ وَثَرَاءِ الحَيَاةِ الَّتِي يَحْيَاهَا أُولَئِكَ السَّادَةُ الأَغْنِيَاءُ . غَيْرَ أَنَّ مستر روتشستر كان شَخْصًا مُخْتَلِفًا جَدًّا عَنْهُمْ ، فَبِرَغْمِ اندِمَاجِهِ في وَسْطِهِمْ وانْطِلاقِهِ بَيْنَهُمْ على سَجِيَّتِهِ ، كان ذا شَخْصِيَّةٍ فَرِيدَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ تَطغى على شَخْصِيَّاتِهِمُ البَاهِتَةِ الهَزِيلَةِ ، أو هذا ما أَحْسَسْتُ به على الأَقْل . ومع أَنَّنِي كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ أُخْفِيَ مَشَاعِرِي إِزاءَهُ وَأُخْنُقَ في صَدْرِي كُلَّ أَمَلٍ فِيهِ ، إلَّا أَنَّنِي أَعْتَرَفُ بِأَنِّي قد أَحْبَبْتُه الحُبَّ كُلَّهُ ... ولقد أَسْلَمْتُ قَلْبِي لهذا الحُبِّ رَغْمَ ما أَمْتَنَعُ به من إِرَادَةٍ صُلْبَةٍ قَوِيَّةٍ .

ولَمَّا أَوْشَكَ اللَّيْلُ أَنْ يَنْتَصِفَ ، أَخَذْتُ بِلانشِ إنْجرام تُغْري مستر روتشستر بِأَنْ يُعَنِّي مَعَهَا لَحْنًا ثُنَائِيًّا حَتَّى قَبْلَ . وَيُؤَسِّفُنِي أَنْ أَقُولَ إِنَّ ذَلِكَ قد أَغْضَبَنِي بَعْضَ الشَّيْءِ فَفَرَرْتُ أَنْ أُنْسَجِبَ بِهُدوءٍ إلى غُرْفَتِي ، وَلَكِنْ - لِدهْشَتِي البَالِغَةِ - وَجَدْتُ مستر روتشستر يَتْبَعُنِي إلى خارجِ القَاعَةِ لِيَقُولَ لي قَبْلَ أَنْ أَصْعَدَ لِلنَّوْمِ : « تُصْبِحِينَ على خَيْرٍ . »

فُتِحَ أَحَدُ الْأَبْوَابِ ، وَجَرى شَخْصٌ ما على الرَّذْهَةِ ، ثُمَّ سَمِعْتُ وَقَعَ خُطَوَاتٍ ثَقِيلَةً تَسِيرُ فَوْقَ سَقْفِ حُجْرَتِي . وَتَناهَى إلى مَسْمَعِي صَوْتُ ارْتِطَامٍ ، أَعَقَبَهُ صَمْتُ .

قَفَزْتُ مِنَ الْفِرَاشِ ، وَارْتَدَيْتُ مَلَابِسِي بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ . وَفِي الرُّواقِ خَارِجِ الْحُجْرَةِ ، كَانَ مُعْظَمُ الضُّيُوفِ قَدْ تَجَمَّعُوا بَعْدَ أَنْ اسْتَيْقَظُوا مِنْ نَوْمِهِمْ فِي هَلَجٍ وَدُغْرٍ . ثُمَّ رَأَيْتُ مَسْتَر روتشستر يَهْبِطُ الدَّرَجَ حَامِلًا شَمْعَةً كَبِيرَةً فِي يَدِهِ ، وَهُوَ يَصِيحُ قَائِلًا : « لَا تَنْزِعْجُوا ، فَكُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ ... كُلُّ ما فِي الْأَمْرِ أَنْ وَاحِدًا مِنَ الْخَدَمِ قَدْ انْتَابَهُ كَابُوسٌ مُرِيعٌ أَثناءَ النَّوْمِ . » وَأَخَذَ الرَّجُلُ يُلاطِفُ ضُيُوفَهُ وَيُدَاعِبُهُمْ حَتَّى هَدَأَتْ مَخَافَهُمْ وَعادُوا إلى حُجراتِهِمْ ، فَتَسَلَّلْتُ أَنَا أَيْضًا عَائِدَةً إلى حُجْرَتِي .



بَعَثَتْ تِلْكَ الْحَفَلَاتِ الْمَنْزِلِيَّةِ الْحَيَاةَ وَالْمَرَحَ فِي قَصْرِ ثورنفيلد . كَانَ الْخَدَمُ يَقُومُونَ عَلَى رِعَايَةِ الضُّيُوفِ فِي هِمَّةٍ وَنَشَاطٍ ، كَمَا كَانَ الزُّوَّارُ يُرَوِّحُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِالْأَلْعَابِ الْمُخْتَلِفَةِ وَتَمَثِيلِ الْمَسْرَحِيَّاتِ الْقِصَارِ . وَفِي جَمِيعِ هَذِهِ الْأَنْشِيطَةِ ، لَاحَظْتُ أَنَّ مَسْتَر روتشستر يَكَادُ لَا يَفْتَرِقُ عَنْ بِلَانْشِ أَنْجَرَام . كَانَ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهُ يَجِدُ لَذَّةً ما فِي صُحْبَتِهَا ، وَأَنَّهَا تَبْدُلُ أَقْصَى ما تَسْتَطِيعُ كَيْ تَحْتَكِرَهُ لِنَفْسِهَا . كَانَ الضُّيُوفُ وَالْخَدَمُ يَتَرَقَّبُونَ إِعْلَانَ خُطْبَتَيْهِمَا بَيْنَ سَاعَةٍ وَأُخْرَى ، كَمَا كَانَ هُنَاكَ شُعُورٌ مُؤَكَّدٌ بَيْنَ الْجَمِيعِ أَنَّ الزَّوْاجَ بَيْنَهُمَا قَادِمٌ لَا مَحَالَةَ ... وَكُنْتُ أُرَاقِبُهُمَا ، فِي مُعْظَمِ الْأُمُسيَّاتِ ، مِنْ رُكْنِي الْهَادِي الَّذِي كُنْتُ أَجْلِسُ فِيهِ ، غَيْرَ أَنَّنِي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَبَيَّنَ دَلِيلًا عَلَى حُبِّ حَقِيقَتِي صَادِقٍ يَرْبُطُ بَيْنَهُمَا ، فَخَلَصْتُ فِي نِهَايَةِ الْأَمْرِ إِلَى أَنَّهُمَا قَدْ يَتَزَوَّجَانِ لِأَسْبَابٍ عَائِلِيَّةٍ أَوْ سِيَاسِيَّةٍ ، كَمَا كَانَ الْأَمْرُ شَائِعًا فِي ذَلِكَ الْحِينِ بَيْنَ أَفْرَادِ مُجْتَمَعَيْهِمَا الْخَاصِّ .

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ ، بَيْنَمَا كَانَ مَسْتَر روتشستر فِي الْخَارِجِ ، فُوجِئْنَا بِزِيَارَةِ أَحَدِ الْأَشْخَاصِ . قَالَ إِنَّ اسْمَهُ رِثْشارْد ماسون ، وَإِنَّهُ قَادِمٌ مِنْ جُزُرِ الْهِنْدِ الْغَرْبِيَّةِ ، كَمَا عَرَفْتُ مِنْ حَدِيثِهِ أَنَّهُ صَدِيقٌ قَدِيمٌ لِمَسْتَر روتشستر . كَانَ رِثْشارْد ماسون رَجُلًا طَوِيلَ الْقَامَةِ ، بَهِيَّ الظَّلْعَةِ ، أُنِيقَ الْمَلْبَسِ ، وَكَانَ لِذَلِكَ مَوْضِعَ إِعْجَابِ السَّيِّدَاتِ اللَّائِي يَصْغُرْنَ فِي السَّنِّ ، وَلَكِنْ شَيْئًا ما يُحِيطُ بِهَذَا الرَّجُلِ أَثَارَ نُفُورِي وَاسْتِيائي . وَقَدْنا الزَّائِرَ الْغَرِيبَ إِلَى غُرْفَتِهِ حَيْثُ جَلَسَ يَنْتَظِرُ قُدُومَ مَسْتَر روتشستر .

شَحَبَ وَجْهُ مَسْتَر روتشستر ، عِنْدَمَا عَلِمَ بِوُصُولِهِ ، وَغَمَغَمَ : « ماسون ... جُزُرُ الْهِنْدِ الْغَرْبِيَّةِ ؟ »

سَأَلْتُهُ فِي قَلْقٍ وَلَهْفَةٍ : « مَاذَا سَيِّدِي ؟ هَلْ تَشْعُرُ بِتَعَبٍ ؟ »

أَجَابَ ، وَقَدْ اسْتَبَدَّ بِهِ كَرْبٌ شَدِيدٌ : « لَقَدْ تَلَقَّيْتُ ضَرْبَةً عَنِيقَةً ، يَا جِين . »

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَمَالَكَ نَفْسُهُ وَاسْتَعَادَ هُدُوءَهُ ظَاهِرِيًّا فَقَصَدَ إِلَى ضُيُوفِهِ ، وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ حَتَّى سَمِعْتُهُ يَسْتَقْبِلُ مَسْتَر ماسون فِي وُدٍّ وَحَرَارَةٍ .

مَرَّتِ الْأَحْدَاثُ سِرَاعًا بَعْدَ ذَلِكَ . وَفِي مُنْتَصَفِ إِحْدَى اللَّيَالِي ، اسْتَيْقَظْتُ مَفْزُوعَةً عَلَى دَوِيِّ صَرْخَةٍ هَائِلَةٍ مُرْعِبَةٍ . ثُمَّ لَمْ أَلْبَثْ أَنْ سَمِعْتُ ضَجِيجَ صِرَاعٍ يَدُورُ فَوْقَ غُرْفَتِي ، أَعَقَبَهُ صَوْتُ إِنْسَانٍ يَصِيحُ فِي طَلَبِ النَّجْدَةِ .

غَيْرَ أَنَّ الْكَرَى لَمْ يُرَاوِدْ جُنْفُونِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ بَعْدَ أَنْ عَصَفَ الْإِضْطِرَابُ بِهُدُوئِي
وَاتَّرَانِي النَّفْسِيَّ ، وَهَكَذَا جَلَسْتُ إِلَى النَّافِذَةِ وَأَنَا لَا أَزَالُ مُرْتَدِيَةً مَلَايْسِي . كُنْتُ عَلَى
يَقِينٍ مِنْ أَنَّ الْأَمْرَ أَخْطَرُ مِنْ مُجَرَّدِ كَابُوسٍ لَيْلِيَّ أَصَابَ أَحَدَ الْخَدَمِ ... وَسَمِعْتُ لِلتَّوَّ
قَرَعًا خَفِيفًا عَلَى بَابِ الْحُجْرَةِ . قُلْتُ ، وَأَنَا أَرْتَعِدُ : « مَنْ بِالْبَابِ ؟ »

فَجَاءَنِي صَوْتُ مَسْتَرِ رَوْتَشْتِرِ يَهْتِفُ فِي صَوْتٍ خَفِيفٍ قَائِلًا : « أَرْجُوكِ ،
أُخْرِجِي بِهُدُوءٍ ، وَأَخْضِرِي مَعَكَ ضِمَادَةً مِنْ شَاشٍ وَبَعْضًا مِنْ أَمْلَاحِ النَّشَادِرِ ... هَيَّا
اتَّبِعِينِي ... »

وَبِسُرْعَةٍ كَبِيرَةٍ قَادَنِي إِلَى الدَّوْرِ الْعُلُويِّ ، حَيْثُ عَبَّرَ الرُّوَّاقَ وَدَلَفَ إِلَى غُرْفَةٍ
فَسِيحَةٍ بِدَاخِلِهَا سَرِيرٌ كَبِيرٌ وَفِي أَقْصَاهَا بَابٌ مُوَارِبٌ . وَمَشَى لِيُعْلِقَ الْبَابَ ، فَسَمِعْتُ
ضِحْكَةً جَرِيسٍ بُوُولِ الْمُدَوِّيَّةِ .



فِي الظَّرْفِ الْأَقْصَى مِنَ الْحُجْرَةِ ، كَانَ مَسْتَرُ مَاسُونِ مُسْتَلْقِيًا فِي كُرْسِيِّ إِلَى
جَانِبِ السَّرِيرِ . كَانَ شَاحِبَ الْوَجْهِ ، مُعْلَقَ الْعَيْنَيْنِ ، كَمَا كَانَ قَمِيصُهُ مُلَطَّخًا بِالدَّمَاءِ .
وَكَانَتْ ذِرَاعُهُ وَكَتِفُهُ مُحَاطَتَيْنِ بِالضَّمَادَاتِ ، وَلَكِنْ تَنْزِفَانِ بِالدَّمَاءِ . طَلَبَ مِنِّي مَسْتَرُ
رَوْتَشْتِرِ أَنْ أَسْتَمِرَّ فِي تَجْفِيفِ هَذِهِ الدَّمَاءِ ، وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَفْعَلُ ذَلِكَ ، فَتَحَ مَسْتَرُ
مَاسُونِ عَيْنَيْهِ فَقَالَ السَّيِّدُ بِحَزْمٍ : « إغْلِقِي فَمَكَ ، يَا رَتشارد ، رَيْثَمَا أَعُودُ إِلَيْكَ
بِالطَّبِيبِ ... لَا تَبْحِي بِشَيْءٍ ... وَأَنْتِ أَيْضًا ، يَا جِين . » ثُمَّ سَارَ خَارِجًا .

عَادَ السَّيِّدُ رَوْتَشْتِرِ وَبِصُحْبَتِهِ الطَّبِيبُ كَارْتِرِ بَعْدَ الْفَجْرِ بِقَلِيلٍ . وَقَامَ الطَّبِيبُ
بِتَنْظِيفِ وَرَبْطِ جُرُوحِ مَسْتَرِ مَاسُونِ ، وَكَانَ بَعْضُهَا قَدْ أَصَابَهُ بِنَصْلِ سِكِّينٍ وَالبَعْضُ
الْآخِرُ بِفِعْلِ أَسْنَانٍ آدَمِيَّةٍ حَادَّةٍ . ثُمَّ غَادَرَ الطَّبِيبُ الْحُجْرَةَ .

فِي تِلْكَ السَّاعَةِ ، كَانَتْ شَمْسُ الصَّبَاحِ قَدْ سَطَعَتْ دَافِئَةً بَرَّاقَةً ، فَأَمْسَكَ مَسْتَرُ
رَوْتَشْتِرِ بِذِرَاعِي قَائِلًا : « هَيَّا لِنَتَمَشَّى سَوِيًّا فِي الْحَدِيقَةِ ، يَا جِين ... لَقَدْ أَصْبَحَ
الْمَنْزِلُ لِي بِمَثَابَةِ سِجْنٍ كَرِيهِ . »

بَيْنَمَا كُنَّا نَتَجَوَّلُ عَبْرَ المُرُوجِ الْمُشْرَبَةِ بِندَى الصَّبَاحِ ، قَالَ مَسْتَرُ رَوْتَشْتِرِ فِي
نَبَرَةٍ رَقِيقَةٍ حَنُونٍ : « لَقَدْ أَمْضَيْتِ ، يَا عَزِيزَتِي جِين ، لَيْلَةً لَيَّالٍ كَثِيبَةً حَفَلَتْ بِالْأَحْدَاثِ
الْمُفْزَعَةِ الْغَرِيبَةِ ... هَلْ أَصَابَكَ ، يَا عَزِيزَتِي ، دُعْرٌ شَدِيدٌ ؟ »

أَجَبْتُ : « أَجَلْ ، يَا مَسْتَرُ رَوْتَشْتِرِ ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ خُرُوجَ شَخْصٍ مَا مِنْ
الْحُجْرَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِيَهْجُمَ عَلَيْنَا . وَلَكِنْ أَخْبَرَنِي : هَلْ نَجَوْتُ الْآنَ تَمَامًا مِنَ الْخَطَرِ
الَّذِي طَنَنْتُهُ يَتَرَبَّصُ بِكَ حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ مَسْتَرُ مَاسُونِ قَدْ قَدِمَ لِيِرَاكَ ؟ »

قَالَ : « آه ، لَا يُمَكِّنُنِي التَّأَكُّدُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا غَادَرَ مَسْتَرُ مَاسُونِ إِنْجَلْتِرَا ، فَهُوَ
يَسْتَطِيعُ أَنْ يُدَمِّرَ سَعَادَتِي بِكَلِمَةٍ خَرَقَاءَ وَاحِدَةٍ . »

عَجِبْتُ لِكُلِّ مَا يَجْرِي حَوْلِي : « مِمَّ يَخَافُ مَسْتَرُ رَوْتَشْتِرِ ؟ وَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ
مَسْتَرُ مَاسُونِ أَنْ يُدَمِّرَ سَعَادَتَهُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ؟ هَلْ هُنَاكَ سَفَاحٌ مَخْبُولٌ يَمْرَحُ طَلِيقًا فِي
الْمَنْزِلِ ؟ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ صَاحَ فِي مَرَحٍ وَكَأَنَّهُ يَغِيطُنِي : « وَلَكِنْ يَجِبُ
عَلَيَّ الْآنَ أَنْ أَذْهَبَ لِلِقَاءِ عَرُوسِي الْمُرْتَقِبَةِ ... إِنَّهَا جَمِيلَةٌ جِدًّا ، يَا جِين ، أَلَيْسَ
كَذَلِكَ ؟ »

كَانَتْ رَحْلَةُ الْعَوْدَةِ إِلَى ثورنفيلد مُضْجِرَةً مُمِلَّةً ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ خِلَالَهَا أَنْ أَكْفَ نَفْسِي عَنِ التَّفْكِيرِ فِي مَسْتَر روتشستر وبلانش إنجرام . وَأَخَذْتُ أَتَسَاءَلُ فِي أَعْمَاقِي : هَلْ بَدَأْتُ أَعَانِي مِنْ وَخْزِ الْغَيْرَةِ اللَّاذِعِ ؟

لَمْ تَصِلْ إِلَى سَمْعِي أَنْبَاءٌ أَوْ إِشَاعَاتٌ عَنْ زَوَاجِ سَيِّدِي الْمُرْتَقِبِ ، فَشَعَرْتُ بِقَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْإِرْتِيَاحِ . وَكَانَ السَّيِّدُ شَدِيدَ الْمَرَحِ ، عَلَى خِلَافِ الْعَادَةِ ، وَكَانَ يُشْدُّ صُحْبَتِي فِي مُعْظَمِ الْأَوْقَاتِ . لَمْ أَرَهُ أَرْقَ مَعِي أَوْ أَحَنَّ عَلَيَّ كَمَا رَأَيْتُهُ حِينَئِذٍ .

وَعَادَ الصَّيْفُ ، وَعَادَتْ بِهِجَتُهُ إِلَى ثورنفيلد . وَلَطَالَمَا سَعِدْتُ حِينَئِذٍ بِالتَّجَوُّلِ فِي الْحَدِيقَةِ خِلَالَ الْأُمُسياتِ الرَّطْبَةِ . وَفِي إِحْدَى هَذِهِ الْأُمُسياتِ كَانَ يَصْحَبُنِي مَسْتَر روتشستر ، فَهَمَسَ لِي قَائِلًا : « ثورنفيلد مَكَانٌ بَدِيعٌ فِي الصَّيْفِ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ ... يَبْدُو أَنَّهُ قَدْ بَدَأَ يَرُوقُ لَكَ الْآنَ . »

أَجَبْتُ : « أَجَلْ ، يَا سَيِّدِي ، لَقَدْ رَاقَ لِي بِالْفِعْلِ . »

أَرَدَفَ : « يَبْدُو كَذَلِكَ أَنَّكَ تُحْسِنُ بِمَشَاعِرِ حَمِيمَةٍ تَجَاهَ مَسْرَ فِيرْفَاكسَ وَتَلْمِذَتِكَ : أَدِيل . »

قُلْتُ : « بِالتَّأَكُّيدِ ، يَا سَيِّدِي ، فَأَنَا أَكُنُّ مَشَاعِرَ الْوُدِّ الصَّادِقِ لِكِلَيْهِمَا . »

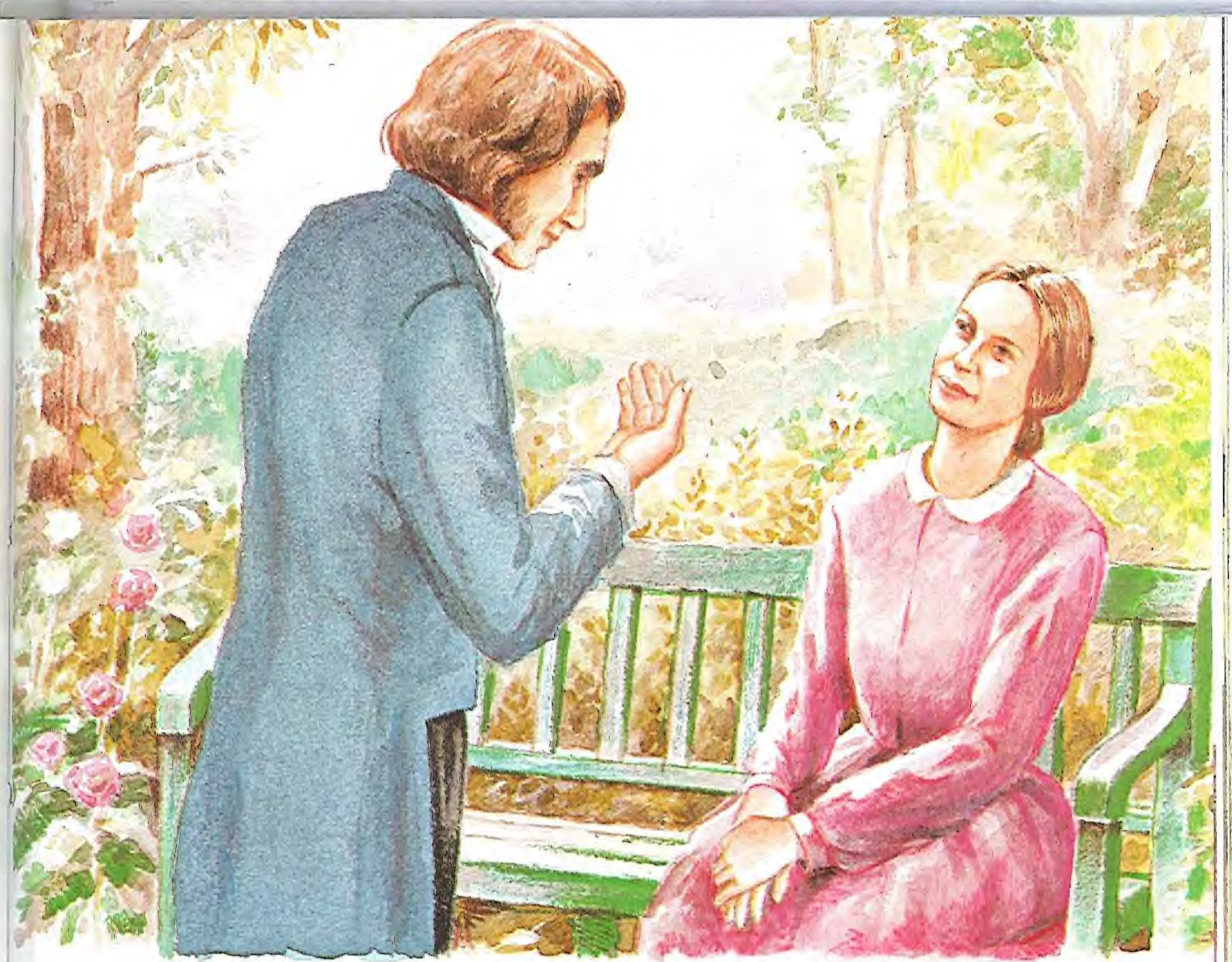
قَالَ ، وَهُوَ يَلْتَصِقُ بِي فَجْأَةً ، وَيَقْبَلُنِي : « أَنْصِتِي ، يَا جِين ... إِنَّنِي أَرْغَبُ فِي الزَّوَاجِ مِنْكَ ، وَأَقْدَمُ لَكَ الْآنَ قَلْبِي بِالْكَامِلِ ، مَعَ نِصْفِ أَمْلَاكِ . »

كَانَتْ الْمُفَاجَأَةُ مُذْهِلَةً . غَيْرَ أَنَّنِي لَمْ أَلْبَثُ أَنْ قُلْتُ فِي تَلَعُّمٍ :

- أَنْتَ تَمْرَحُ يَا سَيِّدِي ، أَوْ لَعَلَّكَ تَسْخَرُ بِي .

فَأَجَابَ ، وَقَدْ تَهَدَّجَ صَوْتُهُ بِعَاطِفَةٍ جَارِفَةٍ : « كَلَّا ، يَا جِين ، لَمْ أَكُنْ جَادًّا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ أَكْثَرَ جِدِّيَّةً . أَنَا لَمْ أَحِبَّ الْآنِسَةَ إِنْجرامَ قَطُّ ، وَإِنَّمَا أَنْتِ الَّتِي أَحْبَبْتُهَا فَقَطُّ ، وَأَنْتِ هِيَ الَّتِي أُرِيدُهَا الْآنَ زَوْجَةً لِي . نَادِينِي بِاسْمِي الْمُبَجَّرِ : إِدوارد ، وَقُولِي لِي : سَوْفَ أَقْبَلُ الزَّوَاجَ مِنْكَ ، يَا إِدوارد . »

قُلْتُ بِابْتِسَامَةٍ مُرْتَعِشَةٍ : « يُسْعِدُنِي الزَّوَاجُ مِنْكَ ، يَا إِدوارد . »



وَبَعْدَ بَضْعَةِ أَيَّامٍ ، اسْتَدْعَتْنِي مَسْرَ فِيرْفَاكسَ إِلَى حُجْرَتِهَا حَيْثُ رَأَيْتُ رَجُلًا يَجْلِسُ فِي أَنْتِظَارِي : كَانَ الرَّجُلُ هُوَ سَائِقُ عَرَبَةٍ مَسْرَ رِيد - زَوْجُ صَدِيقَتِي الْعَزِيزَةِ بِسِي - وَقَدْ قَدِمَ مِنْ جِيْتَسْهَيْدَ لِيُخْبِرَنِي بِأَنَّ مَسْرَ رِيدَ مَرِيضَةٌ وَتَرَّغَبُ فِي رُؤْيَتِي .

وَهَنَّاكَ عَلِمْتُ أَنَّ عَمِّي - جون إير - الَّذِي زَارَ جِيْتَسْهَيْدَ لِيَرَانِي قَبْلَ رَحِيلِهِ إِلَى مَدِيرَا مُنْذُ تِسْعِ سَنَوَاتٍ ، كَانَ قَدْ كَتَبَ لِمَسْرَ رِيدَ خِطَابًا بَعْدَ تِلْكَ الزِّيَارَةِ لِيُخْبِرَهَا بِأَنَّهُ يَرَّغَبُ فِي أَنْ يَتَبَّنَانِي وَيُتْرَكَ كُلُّ ثَرَوَتِهِ لِي . وَبِدَافِعٍ مِنْ حَقْدِهَا عَلَيَّ رَدَّتْ تَقُولُ بِأَنَّنِي مِتُّ خِلَالَ وَبَاءِ التَّيْفُوسِ الَّذِي اجْتَنَحَ لُوُودَ .

كَانَتْ مَسْرَ رِيدَ - حِينَ أُرْسَلْتُ فِي طَلْبِي - عَلَى وَشْكِ أَنْ تَمُوتَ . وَالْحَقُّ أَنَّهَا ظَلَّتْ تُكْرَهُنِي حَتَّى آخِرِ عُمْرِهَا ، وَتُدَبِّرُ لِجِرْمَانِي مِنَ الثَّرْوَةِ الَّتِي هَبَطَتْ عَلَيَّ مِنَ السَّمَاءِ غَيْرَ أَنَّهَا وَجَدَتْ - فِي لَحْظَاتِهَا الْأَخِيرَةِ أَنْ تُسَلِّمَنِي خِطَابَ الْعَمِّ ، فَأَعْطَتْنِي إِيَّاهُ . ثُمَّ لَمْ تَلْبَثُ أَنْ أَسْلَمَتِ الرُّوحَ فَجَرَ الْيَوْمِ التَّالِي .

في الصباح التالي كُنتُ لا أزالُ أَسْبَحُ في لُجَجِ السَّعَادَةِ الغَامِرَةِ. وأثناء النَّهَارِ، أَخْبَرَنِي مَسْتَرُ روتشستر أنَّ زِفَانَا سَوْفَ يَتِمُّ خِلَالِ أَرْبَعَةِ أَسابِيعَ، وَأَنَا سَوْفَ نَقْضِي شَهْرَ الْعَسَلِ فِي أوروْبَا، وَأَنَّهُ يَرْغَبُ - لهذه المُنَاسَبَةِ - في اصْطِحَابِي إِلَى مِيلْكوت لِشِرَاءِ مُجَوَهَرَاتٍ وَمَلَابِسٍ جَدِيدَةٍ لِي.

وَهَمَسَ فِي وَجْدٍ قَائِلًا: «سَنَجُولُ حَيْثُ جُلْتُ فِي بَارِيسَ وَرُومَا وَنَابُولِي مِنْ قَبْلُ - وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَرَّةَ سَوْفَ يَكُونُ مَعِيَ مَلَائِكَةُ الْحَارِسِ».

طَلَبْتُ إِلَى مَسْتَرِ روتشستر أَنْ يُفْضِيَ لِمَسَرِّ فِيرْفَاكسِ بِكُلِّ شَيْءٍ - وَلَقَدْ أَنْفَذَ ذَلِكَ بِالْفِعْلِ. وَمَا إِنَّ رَأَيْتُهَا بَعْدَ حِينٍ حَتَّى بَدَتْ وَاجِمَةً تَنْطِقُ عَيْنَاهَا بِنَظَرَاتِ الْهَلَعِ وَالتَّحْذِيرِ وَكَأَنَّهَا تُخْفِي فِي أَعْمَاقِهَا سِرًّا دَفِينًا، فَلَمْ أَذِرْ إِلَّا وَالْذُّمُوعُ تَتَسَاقَطُ مِنْ عَيْنَيْ.

مَرَّتِ الْأَسَابِيعُ تَحْفُفُ بِهَا طُيُوفُ السَّعَادَةِ الْبَهِيْجَةِ إِلَى أَنْ حَلَّ الْيَوْمُ السَّابِقُ عَلَى يَوْمِ الزَّفَافِ. وَكُنْتُ قَدْ عَلَّقْتُ ثَوْبَ زِفَافِي الْأَبْيَضَ فِي دُولَابِ الْمَلَابِسِ. بَعْدَ تَنَاوُلِ الْعِشَاءِ فِي مَسَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، لَاحَظَ مَسْتَرُ روتشستر أَنَّي قَلِقَةٌ وَمُتَهَاجَةٌ بِعُضِّ الشَّيْءِ، فَسَأَلَنِي قَائِلًا: «مَاذَا بِكَ، يَا جِين؟ هَلْ حَدَثَ شَيْءٌ؟»

أَجَبْتُ: «صَحَوْتُ لَيْلًا عَلَى ضَوْءِ ظَنَنْتُهُ ضَوْءَ النَّهَارِ، فَرَأَيْتُ امْرَأَةً بِشِعَةِ الْمَنْظَرِ تَقِفُ دَاخِلَ الْحُجْرَةِ مُمْسِكَةً بِشَمْعَةٍ كَبِيرَةٍ فِي يَدِهَا النَّحِيلَةَ الْمَعْرُوقَةَ».

قَاطَعَنِي مَسْتَرُ روتشستر قَائِلًا: «أُوهِ، لَعَلَّهَا كَانَتْ لِيَا أَوْ صُوفِي».

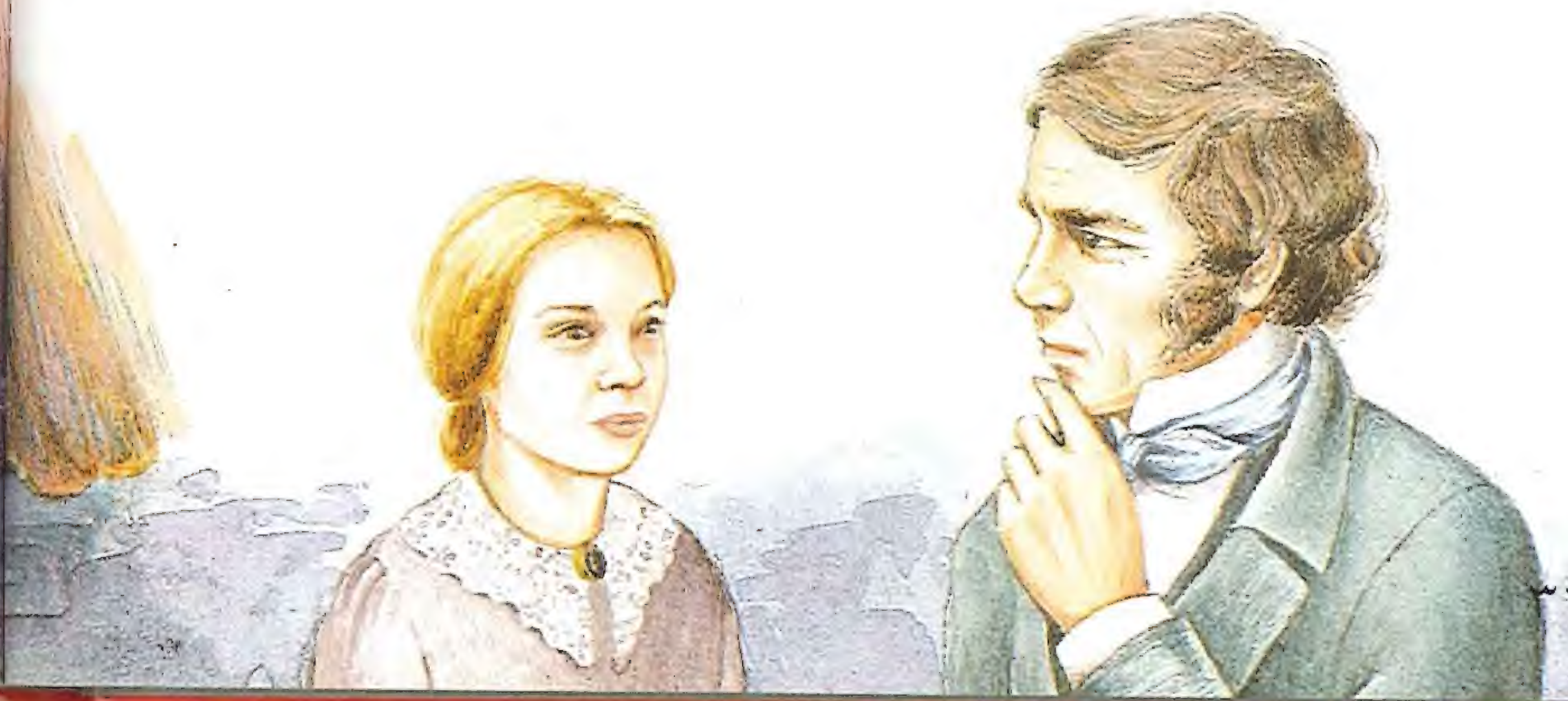
صَحْتُ: «كَلَّا، فَأَنَا لَمْ أَرْ هَذِهِ الْمَرْأَةَ أَبَدًا مِنْ قَبْلُ. كَانَتْ سَمْرَاءَ طَوِيلَةً، وَلَكِنْ مُنْحَنِيَةً الْقَامَةِ، وَكَانَتْ ذَاتَ شَعْرِ طَوِيلٍ فَاحِمٍ وَشَفَتَيْنِ أُرْجَوَانِيَّتَيْنِ وَعَيْنَيْنِ مُحْتَقِنَتَيْنِ بِالدَّمَاءِ... يَا لَهُ مِنْ مَنْظَرٍ بَشِعٍ لَا يُنْسَى».

«كَلَّا، كَلَّا، يَا جِين» قَالَ مَسْتَرُ روتشستر فِي إِصْرَارٍ، «لَا بُدَّ وَأَنَّهُ كَانَ حُلْمًا آخَرَ، فَاخْتَلَطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ».

فَاجَبْتُ: «كَلَّا، بَلْ كَانَ حَقِيقَةً وَاقِعَةً.. أَنَا وَاثِقَةٌ مِنْ ذَلِكَ».

كُنتُ عَازِمَةً عَلَى إِخْبَارِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ.. وَكَانَ عَلَيَّ إِقْنَاعُهُ بِمَا رَأَيْتُ.

وَأَزْدَفْتُ قَائِلَةً: «كَأَنَّ تَضَعُ نِقَابَ زِفَافِي عَلَى رَأْسِهَا. وَلَمَّا رَأَيْتُهَا أَنْظُرُ إِلَيْهَا، نَزَعَتْهُ عَنْهَا، وَمَرَّقَتْهُ إِلَى نِصْفَيْنِ، وَأَلْقَتْهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَوَطَّئَتْهُ بِقَدَمِهَا. ثُمَّ دَفَعَتْهُ بِالشَّمْعَةِ قَرِيبًا مِنِّي، وَأَطْفَأَتْهَا أَمَامَ عَيْنَيْ... هَذَا كُلُّ مَا أَذْكُرُهُ، لِأَنَّ الرُّعْبَ وَالْفَزَعَ اللَّذَيْنِ اجْتَاَحَانِي حِينَئِذٍ قَدْ أَفْقَدَانِي الْوَعْيَ».



سألني مستر روتشستر بقلبي: «من كان هناك عندما أفقت، يا جين؟»

أجبت: «لا أحد، يا سيدي. كان النهار قد طلع فظننت أنني كنت أحلم، إلى أن رأيت خيماري مطروحًا على الأرض وممزقًا إلى نصفين.»

ارتجفت مستر روتشستر. ولم يلبث أن صاح قائلاً في حارة: «شكرًا لله أن الأمر لم يتجاوز الخمار... لا شك أن الفاعلة هي جريس بوول.»

قضيت تلك الليلة مع أديل وصوفي في غرفة الأطفال بعد أن أحكمنا رتاج الباب من الداخل. وبعد نوم مشوب بالأرق صحت تداعيني مشاعر الغبطة والسعادة، ولكن هاجسًا في أعماقي كان يُذِرني بشرٌ مُستطير... بدا وكأن ذلك اليوم سيكون غريبًا حافلًا في تاريخ أيام الزفاف!

سرت بصحبة مستر روتشستر إلى الكنيسة دونما رفاقي. على أننا رأينا عند وصولنا إلى الكنيسة رجلين غريبين يتجولان في فنائها. وفوجئنا بهذين الرجلين يتبعاننا إلى الداخل، ويجلسان لمتابعة مراسم الزفاف. وفجأة صاح أحد الرجلين: «لا تيم هذا الزواج أيها القس! هناك مانع شرعي يحول دون ذلك.»

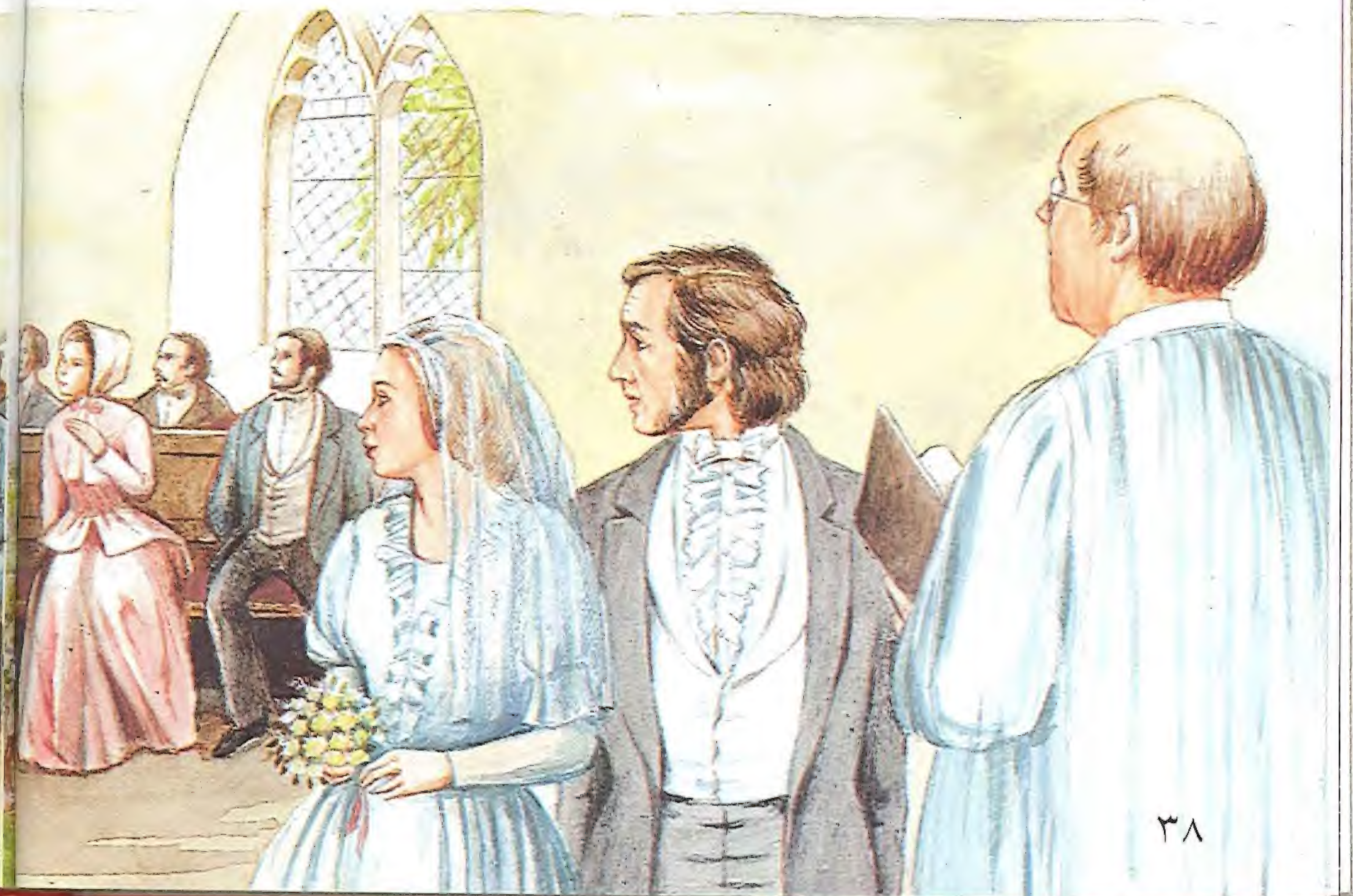
سرعان ما أعلن الرجل الغريب قائلاً: «هذا الزواج باطل قانونًا، لأن لمستر روتشستر زوجة أخرى ما زالت على قيد الحياة.»

أصابني زلزلة عنيفة هزّني من الأعماق. وقبض مستر روتشستر على ذراعي بشدة ليحول دون أن أتهاوى إلى الأرض.

وسمعت الرجل يقول في هدوء: «أنا مُحامٍ من لندن واسمي: برجز، وقد وُكلني في هذه القضية شخص يهتمُّ الأمر.»

ثم أخرج من جيبي وثيقة وقرأها بصوت عالٍ. كانت تحمل توقيع رتشارد ماسون، وتفيد بأن أخته برتا ماسون قد تزوجت من إدوارد فيرفاكس روتشستر صاحب قصر ثورنفلد في إنجلترا، وأن هذه الزيجة قد عُقدت ببلدة جامايكا الإسبانية منذ خمس عشرة سنة.

عندئذ ردّ مستر روتشستر بنبرة ساخرة: «هذه الوثيقة تدلُّ على أنني تزوجت من برتا ماسون في ذلك التاريخ، وهو ما قد حدث بالفعل، ولكنها لا تشير إلى أن زوجتي ما زالت على قيد الحياة.»



في تلك اللَّحْظَةِ ، ظَهَرَ الرَّجُلُ الْغَرِيبُ الثَّانِي الَّذِي كَانَ مُخْتَبِئًا خَلْفَ أَحَدِ
الْأَعْمِدَةِ . وَجَحَظَتْ عَيْنَا مَسْتَر روتشستر وارتجفت ، ثُمَّ اسْتَنَدَ إِلَى ذِرَاعِي وَهُوَ يَنْطِقُ
لَاهِثًا بِاسْمِ الرَّجُلِ فِي ذَهْوِلٍ : « رتشارد ماسون ! »

أَجَابَ ماسون قائلاً : « أَجَلْ ، يا إدوارد روتشستر ، أنا رتشارد ماسون . وَأُعْلِنُ
أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ أُخْتِي : بَرْتَا - الَّتِي هِيَ زَوْجَتُكَ - عِنْدَمَا زُرْتُكَ فِي أBRIL الماضي .
كَانَتْ حَبِيسَةً غُرْفَتِهَا ، وَكَانَتْ تَقُومُ عَلَى رِعَايَتِهَا خَادِمَتُكَ : جَرِيس بُول . »
سَادَ الْحَاضِرِينَ سُكُونٌ مُطَبَّقٌ وَكَانَهُمْ أَصِيبُوا بِضَرْبَةِ قَاضِيَةٍ .

وَقَفَ مَسْتَر روتشستر وَقَالَ بِصَوْتٍ حَزِينٍ : « أَعْتَرِفُ بِأَنِّي تَرَوَّجْتُ بَرْتَا ماسون
مُنْذُ خَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا ، وَلَكِنِّي خُدَعْتُ فِي هَذَا الزَّوْاجِ . لَمْ يُخْبِرْنِي أَحَدٌ قَطُّ بِأَنَّ فِي
عَائِلَةِ ماسون دَاءَ الْجَنُونِ ، فَأُمُّ زَوْجَتِي كَانَتْ مُخْتَلَّةَ الْعَقْلِ ، وَلَقَدْ وَرِثَتْ عَنْهَا ابْنَتُهَا
بَرْتَا هَذَا الدَّاءَ الْخَطِيرَ . وَالآنَ ، أَيُّهَا السَّادَةُ ، أَدْعُوكُمْ إِلَى زِيَارَةِ مَرِيضَتِي الَّتِي وَضَعْتُهَا
فِي رِعَايَةِ جَرِيس بُول لِلإِطْلَاعِ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِأَنْفُسِكُمْ . وَعَلَيْكُمْ عِنْدَئِذٍ أَنْ تَقْضُوا
بِأَنْفُسِكُمْ مَا إِذَا كَانَ يَحِقُّ لِي فَسْخُ هَذِهِ الزَّيْجَةِ أَمْ لَا - وَأَنَا رَاضٍ بِقَضَائِكُمْ . »
وَاصْطَحَبْنَا مَسْتَر روتشستر بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْقَصْرِ ، حَيْثُ قَادَنَا إِلَى الدَّوْرِ الْعُلُويِّ قَائِلًا
لِمَاسُون :

« أَنْتَ تَعْرِفُ هَذَا الْمَكَانَ جَيِّدًا ، يَا مَاسُون . سَوْفَ نَذْلُفُ الْآنَ إِلَى الْحُجْرَةِ
حَيْثُ طَعَنْتُكَ ، وَنَالَتْ عَضَائُهَا مِنْ لَحْمِكَ . »

وَفَتَحَ الْبَابَ لِيَكْشِفَ لَنَا عَنْ جَرِيس بُول جَالِسَةً إِلَى جِوَارِ الْمِدْفَاةِ . وَفِي
الْظَّرْفِ الْأَقْصَى لِلْحُجْرَةِ رَأَيْنَا مِسْحًا آدَمِيًّا شَائِنَ الْمَنْظَرِ لِامْرَأَةٍ مُحْدَوْدَةٍ ، تَخْطُو تَارَةً
إِلَى الْأَمَامِ وَتَارَةً إِلَى الْخَلْفِ ، مِثْلَ حَيَوَانٍ مُفْتَرَسٍ يَجُوسُ فِي قَفْصِهِ . وَكَانَتْ كُتْلَةً مِنَ
الشَّعْرِ الْأَسْوَدِ الْكَثِيفِ تُخْفِي عَنَّا وَجْهَهَا .

« كَيْفَ حَالُ مَرِيضَتِكَ الْيَوْمَ ؟ » - سَأَلَ مَسْتَر روتشستر ، وَهُوَ يُحَاوِلُ التَّحَكُّمَ
فِي مَشَاعِرِهِ .

« لَمْ تَتَجَاوَزِ الْحَدَّ بَعْدُ . » أَجَابَتْ جَرِيس بُول « مَا زَالَتْ فَظَّةٌ وَعَضَاضَةٌ ،
وَلَكِنْ يُمَكِّنُ كَبْحُ جِمَاحِهَا . »



وَانْتَصَبَ الْمِسْحُ الْآدَمِيُّ مُتَنَبِّهًا .

صَاحَتْ جَرِيس بُول : « لَقَدْ سَمِعْتُكَ . خُذْ حَذَرَكَ فَقَدْ تَنَقَّضَ عَلَيْكَ فِي أَيِّ
لَحْظَةٍ . »

وَهَذَا مَا حَدَّثَ بِالْفِعْلِ ، إِذْ سُرَّعَانَ مَا وَثَبَتِ الْمَرْأَةُ الْمَخْبُولَةُ عَلَى مَسْتَر
روتشستر ، وَأَخَذَتْ تَحْمِسُهُ وَتَعَضُّهُ . وَجَاهَدَ الرَّجُلُ لِيُخَلِّصَ نَفْسَهُ مِنْهَا .

« تِلْكُمْ ، أَيُّهَا السَّادَةُ ، هِيَ زَوْجَتِي . » قَالَ مَسْتَر روتشستر بِرَتَّةٍ أَسَى عَمِيقٍ بَيْنَمَا
أَخَذَ يُسَوِّي شَعْرَهُ الْأَشْعَثَ وَمَلَابِسَهُ الْمُتَغَضَّنَةَ .

أَصْبَحَتْ كَسِيرَةً الْقَلْبِ مُحْطَمَةً الْفُؤَادِ بَعْدَ أَنْ دَهَمَتْنِي تِلْكَ الْأَحْدَاثُ ، وَكَانَتْهَا
قَدَّرَ مَاسَاوِيَّ غَاشِمٍ عَصَفَ بِكُلِّ آمَالِي وَأَحْلَامِي .

عَلِمْتُ فِيمَا بَعْدَ بِأَسْبَابِ مَا حَدَثَ يَوْمَ زِفَافِي الْمَشْتُومِ: فَلَقَدْ قَامَ مَسْتَرُ مَاسُونُ مُؤَخَّرًا بِزِيَارَةِ عَمِّي - جون إير - في مديرا، فَعَرَفَ مِنْ خِطَابِ كُنْتُ قَدْ أَرْسَلْتُهُ لَهُ أَنَّنِي سَوْفَ أَتَزَوَّجُ مَسْتَرَ روتشستر في القريب العاجل. ولَمَّا عَلِمَ الْعَمُّ مِنْ ضَيْفِهِ مَسْتَرُ مَاسُونِ بِزَوَاجِ مَسْتَرَ روتشستر السابق، سَارَعَ بِإِرْسَالِ الْأَخِيرِ إِلَى إِنْجَلْتِرَا لِيُوقِفَ زِفَافِي قَانُونًا عَنْ طَرِيقِ مُحَامِيهِ: مَسْتَرِ بَرَجَز.

عِنْدَئِذٍ عُدْتُ إِلَى غُرْفَتِي وَأَغْلَقْتُ الْبَابَ وَرَائِي، وَنَضَوْتُ عَنِّي تَوْبِي الْأَنِيَقَ وَلَبِسْتُ رِدَائِي الْأَسْوَدَ الْبَسِيطَ، ثُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي لِأَحَاسِيْسِ الْيَأْسِ وَالْقَنُوطِ... لَقَدْ انْهَارَتْ كُلُّ آمَالِي وَأَحْلَامِي، وَغَدَتْ حَيَاتِي خَاوِيَةً بِلا غَايَةٍ.

مَكَثْتُ بِمُفْرَدِي وَقْتًا طَوِيلًا، وَأَخَذْتُ أَفَكِّرُ فِي مُسْتَقْبَلِي بَعْمَقٍ، فَرَأَيْتُ أَنَّنِي يَجِبُ أَنْ أَغَادِرُ ثورنفيلد فِي أَقْرَبِ فُرْصَةٍ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ أَرَى مَسْتَرَ روتشستر أَوَّلًا. وَشَعَرْتُ لَدَى هَذَا الْخَاطِرِ بِغَضَّةٍ شَدِيدَةٍ.

فَتَحْتُ الْبَابَ، فَكِدْتُ أَقْعُ فَوْقَهُ.. كَانَ يَجْلِسُ فِي غَمٍّ وَاكْتِتَابٍ عَلَى مَقْعَدٍ خَارِجٍ حُجْرَتِي. لَمْ أَكُنْ قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ بَعْدَ بِاللِّسَانِ، إِلَّا أَنَّ قَلْبِي كَانَ قَدْ سَامَحَهُ بِالْفِعْلِ.

قال: «هذه المرأة قد جلبت اللعنة على هذا البيت. بيد أنني سوف أحسب الأمر إلى الأبد. غداً سوف تغادر ثورنفيلد، أنت وأنا بمفردنا، وسوف ألحق أديل بمدرسة داخلية بعيدة.»

صَحْتُ فِي غَضَبٍ وَانْفِعَالٍ: «كَلَّا، كَلَّا، هَذَا لَنْ يَحْدُثَ... يَجِبُ أَنْ نَنْفَصِلَ... سَوْفَ أَغَادِرُ ثورنفيلد بِمُفْرَدِي... لَنْ يَعُوقَنِي عَنْ ذَلِكَ شَيْءٌ.»

حَاوَلَ مَسْتَرُ روتشستر أَنْ يثْنِيَنِي عَنْ عَزْمِي بِكُلِّ سُبُلِ الْمُجَادَلَةِ وَالْإِقْنَاعِ. قَالَ لِي أَنَّ وَالِدَهُ وَأَخَاهُ الْأَكْبَرَ قَدْ ذَبَرَا أَمْرَ زَوَاجِهِ مِنْ بَرْتَا مَاسُونِ لِلْحُصُولِ عَلَى ثَرَوَتِهَا، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ رَأَى أُمُّهَا الْمَجْنُونَةَ قَطُّ قَبْلَ الزَّوْاجِ، أَوْ كَانَتْ لَدَيْهِ أَدْنَى فِكْرَةٍ عَنْ حَالَةِ ابْنَتِهَا الْمُشَابِهَةِ.

ثُمَّ أَرَدَفَ أَنَّهُ سُرَّعَانَ مَا ظَهَرَتْ دَلَائِلُ مَرَضِهَا الْخَطِيرِ بَعْدَ الزَّوْاجِ، فَاضْطُرَّ آخِرَ الْأَمْرِ إِلَى أَنْ يَعْهَدَ بِهَا إِلَى جَرِيسِ بُوول لِيَتَقَوَّمَ بِجِرَاسَتِهَا وَالْعِنَايَةِ بِهَا، فِي حِينِ هَجَرِ هُوَ الْقَصْرِ الَّذِي لَمْ يَعُدْ يَجِدُ فِيهِ إِلَّا التَّعَاسَةَ وَالشَّقَاءَ، وَأَخَذَ يَجُولُ فِي أَقْطَارِ أَجْنِبِيَّةٍ بَعِيدَةٍ بَحْثًا عَنِ السَّعَادَةِ، أَوْ نُشْدَانًا لِلنِّسْيَانِ.

ثُمَّ عَادَ إِلَى بَيْتِهِ مُنْهَكًا مَكْدُودًا فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ، بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَ أَنَّهُ كَانَ ضَحِيَّةً لِلْوَهْمِ وَالْإِنْخِدَاعِ... عَادَ لِيَجِدَ بَيْنَ جُذْرَانِهِ - كَمَا قَالَ - مَنْ بَدَّلَتْ مِنْ خَوْفِهِ أَمْنًا، وَمِنْ حُزْنِهِ بَهْجَةً وَسُرُورًا: الْمُعَلِّمَةُ الشَّابَّةُ الَّتِي سَوْفَ يَجِدُ فِي قُرْبِهَا كُلَّ هَنَاءٍ وَسَعَادَةٍ.



عَزَمْتُ عَلَى الرَّحِيلِ فَوْرًا قَبْلَ أَنْ تَهْنَ عَزِيمَتِي . فَرَكِبْتُ عَرَبَةَ الْمُسَافِرِينَ
وَطَلَبْتُ مِنَ السَّائِقِ أَنْ يُنْزِلَنِي فِي أَبْعَدِ مَكَانٍ . بَعْدَ سَاعَاتٍ وَجَدْتُ نَفْسِي وَحِيدَةً فِي
أَطْرَافِ قَرْيَةٍ بَعِيدَةٍ . كَانَ الْمَطَرُ يَتَساقَطُ بِقُوَّةٍ . وَكُنْتُ وَحِيدَةً وَبَائِسَةً وَجَائِعَةً .
فَتَوَجَّهْتُ إِلَى مَنْزِلٍ صَغِيرٍ أَحْتَمِي بِهِ .

نَظَرْتُ مِنْ خِلَالِ النَّافِذَةِ الْعَارِيَةِ مِنَ السَّتَائِرِ فَرَأَيْتُ فَتَاتَيْنِ تَجْلِسَانِ إِلَى جِوَارِ
الْمِدْفَاقَةِ ، وَأَمَامَهُمَا كَلْبٌ مُسْتَلْقٍ عَلَى الْبِساطِ الْمُمتَدِّ تَحْتَ أَقْدَامِهِنَّ . قَرَعْتُ الْبَابَ
بِخَفَّةٍ فَفَتَحَتْهُ الْخَادِمَةُ ، وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا أَغْلَقَتْهُ فِي وَجْهِي عِنْدَمَا رَأَيْتُنِي أَلْتَمِسُ
الْمَأْوَى وَالطَّعَامَ .

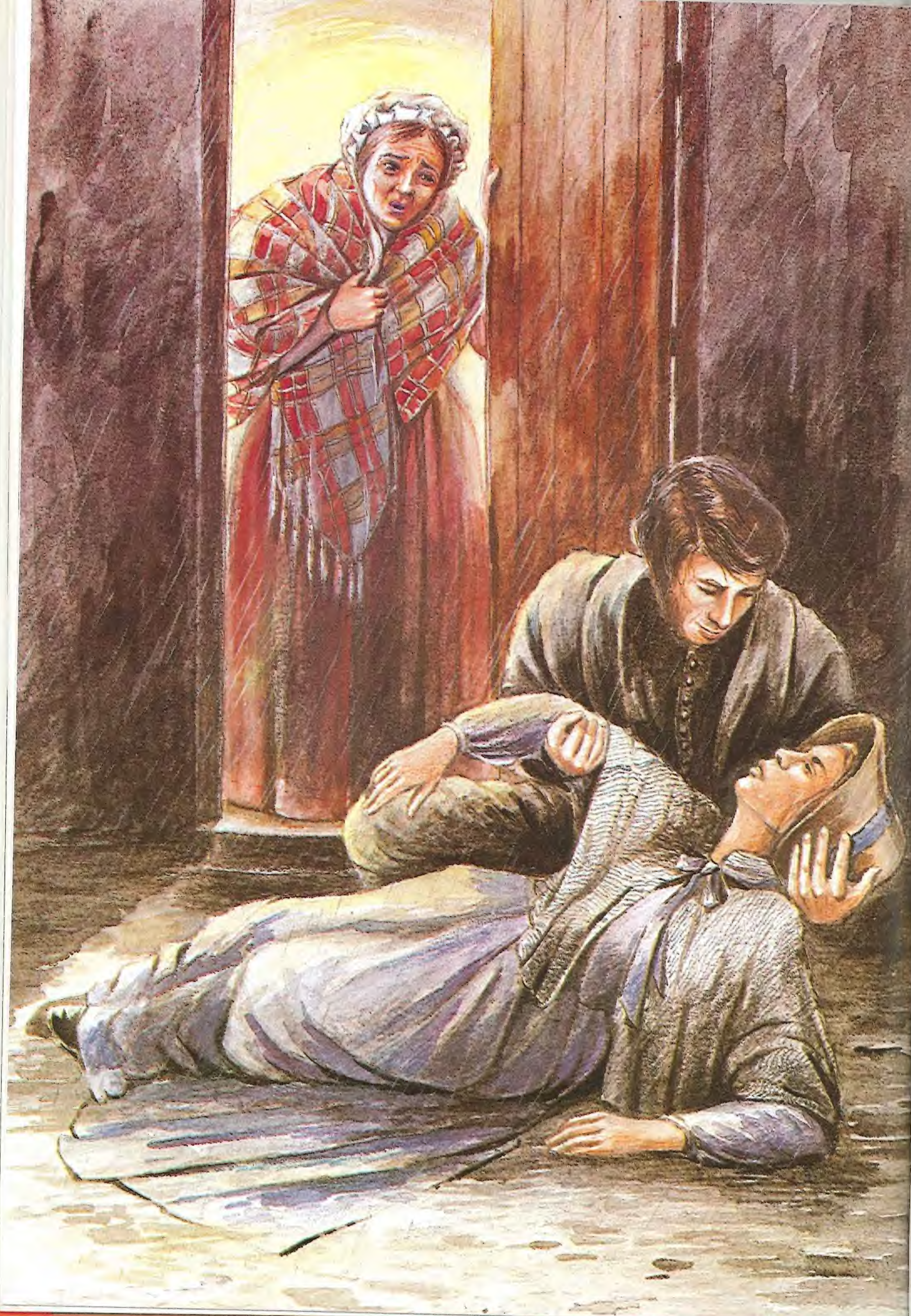
سَقَطْتُ مُنْهَارَةً مِنَ الْجُوعِ وَالتَّعَبِ عَلَى عَتَبَةِ الْبَابِ . وَنَطَقْتُ فِي وَهْنٍ بِهَذِهِ
الْكَلِمَاتِ : « سَأَمُوتُ حَتْمًا .. سَأَمُوتُ حَتْمًا » ، وَإِذَا بِصَوْتِ رَجُلٍ مِنَ الْخَلْفِ يَقُولُ :
« كُلُّ مَنَا سَيَمُوتُ يَوْمًا مَا ، وَلَكِنْ حَاشَا لَنَا أَنْ نَدْعَكَ تَمُوتِينَ عَلَى عَتَبَاتِ الدَّارِ وَأَنْتِ
تَلْتَمِسِينَ الْمَأْوَى فِي لَيْلٍ عَاصِفٍ مَطِيرٍ . »

طَرَقَ الرَّجُلُ الْبَابَ ، وَلَمَّا فَتَحَتْهُ الْخَادِمَةُ هَذِهِ الْمَرَّةَ صَاحَتْ مُهَلَّلَةً فِي
تَرْحَابٍ : « أَهْلًا ، مَسْتَرِ سَانْتِ جُون ، لَا بُدَّ أَنَّكَ قَدْ عَانَيْتَ كَثِيرًا مِنَ الْبَرْدِ وَالْمَطَرِ فِي
الْخَارِجِ . » لَكِنَّهَا لَمْ تَلْبَثْ أَنْ لَمَحْتَنِي فَنَظَرْتُ إِلَيْي شَذْرًا وَقَالَتْ : « أَمَا زِلْتِ وَاقِفَةً
هُنَا أَيُّهَا الشَّحَاذَةُ التَّعْسَةُ ؟ ... أَغْرَبِي عَنْ وَجْهِي ! »

« مَهْلًا ، يَا حَتَّه » ، قَالَ الرَّجُلُ ، « فَرُبَّمَا كَانَتْ الْفَتَاةُ فِي حَاجَةٍ إِلَى التَّجَدُّدِ
وَالْعَوْثِ .. اتَّبِعِينِي إِلَى الدَّاخِلِ ، يَا فَتَاتِي . »

تَبِعْتُهُ إِلَى الدَّاخِلِ فِي خُطَوَاتٍ مُرْتَعِشَةٍ مُتَرَنِّحَةٍ ، وَتَهَالَكْتُ عَلَى أَحَدِ الْمَقَاعِدِ ،
وَقَدَّمْتُ لِي الْفَتَاتَانِ شَيْئًا مِنَ الْخُبْزِ وَاللَّبَنِ ، وَعَرَفْتُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّ اسْمَيْهِمَا : دِيَانَا
وَمَارِي . وَعِنْدَمَا تَمَالَكْتُ قُوَايَ بَعْضِ الشَّيْءِ ، سَأَلَنِي مَسْتَرِ سَانْتِ جُون عَنْ قِصَّتِي .

ادَّعَيْتُ أَنَّ اسْمِي جِينِ إِيلِيُوتَ ، غَيْرَ أَنَّنِي لَمْ أَسْتَطِعْ إِخْبَارَهُمْ بِأَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ .
وَعِنْدَمَا تَقَدَّمَ بِنَا اللَّيْلُ - وَكُنْتُ قَدْ أَخَذْتُ حَيْثُ قِسْطًا أَكْبَرَ مِنَ الرَّاحَةِ وَتَنَاوَلْتُ قَدْرًا
أَوْفَرَ مِنَ الطَّعَامِ - قَادَتْنِي السَّيِّدَتَانِ إِلَى الطَّابِقِ الْعُلَوِيِّ وَوَضَعَتَانِي فِي فِرَاشٍ جافٍّ
وَدَافِيٍّ .





عَشِيَّتِي الحُمَّى لِمُدَّةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَثَلَاثِ لَيَالٍ مُتتَالِيَةٍ لَمْ أَقُوْ خِلَالَهَا عَلَى الْكَلَامِ. وَكَانَتْ دِيَانَا وَمَارِي تَجْلِسَانِ إِلَى جَانِبِ سَرِيرِي بِضَعِ سَاعَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، كَمَا صَعِدَ مَسْتَرُ سَانَتِ جُونِ إِلَى غُرْفَةِ النَّوْمِ مَرَّتَيْنِ لِيَرَانِي.

فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ اسْتَرَدَدْتُ عَافِيَتِي إِلَى حَدِّ مَا، وَلَا حِظُّ أَنْ مَلَأْسِي قَدْ غُسِلَتْ وَكُوِيَتْ وَأَصْبَحَتْ مُعَدَّةً لِأَنْ أَرْتَدِيَهَا فِي أَيِّ وَقْتٍ أَشَاءُ.

وَلَقَدْ ارْتَدَيْتُهَا بِالْفِعْلِ، وَهَبَطْتُ إِلَى الدَّوْرِ السُّفْلِيِّ وَأَنَا لَا أَزالُ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنَ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ. وَكَانَتْ حَنَّةٌ وَاقِفَةٌ فِي غُرْفَةِ الْمَطْبَخِ تَصْنَعُ بَعْضَ الْخُبْزِ وَالْكَعْكَ. وَعَرَضْتُ عَلَيْهَا أَنْ أَسَاعِدَهَا فِي الْأَعْمَالِ الْمَنْزِلِيَّةِ فَرَفَضَتْ بِوُدٍّ وَحَنَانٍ.

وَشَرَعْتُ تُحَدِّثُنِي عَنِ الْعَائِلَةِ الَّتِي تُصِيفُنِي، فَقَالَتْ إِنَّهُمْ يُدْعَوْنَ بِعَائِلَةِ رِفْرَزَ، وَإِنَّهُمْ يَمْلِكُونَ هَذَا الْبَيْتَ الْوَاقِعَ عِنْدَ طَرَفِ الْمُسْتَنْقَعِ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيْ عَامٍ. وَأَضَافَتْ أَنَّ مَسْتَرَ سَانَتِ جُونِ رِفْرَزَ هُوَ قَسٌّ قَرْيَةٍ مَوْرَتُونِ - وَهِيَ قَرْيَةٌ مُجَاوِرَةٌ تَقَعُ عَلَى بُعْدِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ - وَأَنَّهُ يَعِيشُ فِي الْبَيْتِ الْمُخَصَّصِ لِلْكَاهِنِ هُنَاكَ، وَأَنَّ دِيَانَا وَمَارِي أَخْتَاهُ وَتَشْتَغِلَانِ مُعَلِّمَتَيِ أَطْفَالٍ، وَأَنَّهُمَا تَحْضُرَانِ إِلَى بَيْتِ الْعَائِلَةِ هَذَا لِلْاجْتِمَاعِ بِأَخِيهِمَا بَيْنَ حِينٍ وَآخَرٍ.

فِي الْمَسَاءِ تَحَدَّثْتُ إِلَى مَسْتَرِ سَانَتِ جُونِ رِفْرَزَ، وَطَرَحَ عَلَيَّ بِضْعَةَ أَسْئَلَةٍ. وَأَجَبْتُهُ فِي حَذَرٍ وَاقْتِضَابٍ دُونَ أَنْ أَخُوْضَ فِي تَفَاصِيلِ حَيَاتِي السَّابِقَةِ. عَلَى أَنَّي أَخْبَرْتُهُ بِأَنِّي اسْتَعْلْتُ كَمُعَلِّمَةِ أَطْفَالٍ ثُمَّ تَرَكْتُ الْعَمَلَ فَجَاءَةً حِينَ ثَارَتْ مُشْكِلَةٌ غَيْرُ مُتَوَقَّعَةٍ. وَأَنْصَتَ إِلَيَّ الرَّجُلُ فِي عَظْفٍ وَاهْتِمَامٍ، ثُمَّ وَعَدَ بَأَنْ يَبْحَثَ لِي عَنْ وَظِيفَةٍ. وَقَضَيْتُ مَعَ عَائِلَةِ رِفْرَزَ بِضْعَةَ أَسَابِيعٍ فِي فَرَحٍ وَسُرُورٍ، وَاقْتَرَبْتُ مِنْ دِيَانَا وَمَارِي كُلِّ اقْتِرَابٍ. وَفِي نِهَآيَةِ تِلْكَ الْأَيَّامِ السَّعِيدَةِ ذَكَرْتُ مَسْتَرَ سَانَتِ جُونِ بِوَعْدِهِ بِالْبَحْثِ لِي عَنْ عَمَلٍ، فَقَالَ:

- «أَنَا لَمْ أَتَسَّرْ هَذَا الْأَمْرَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَلَكِنْ دِيَانَا وَمَارِي قَدْ تَعَلَّقْنَا بِكَ أَشَدَّ التَّعَلُّقِ، وَنَحْنُ لَا نَرْغَبُ فِي أَنْ تُعْجَلِي بِالرَّحِيلِ. عَلَى أَنَّي قَدْ وَجَدْتُ وَظِيفَةً لَكَ بِالْفِعْلِ، وَيُمْكِنُكَ اسْتِلَامُهَا مَتَى تَشَائِنَ.»

وَمَضَى الصَّدِيقُ يَشْرُحُ لِي الْأَمْرَ، فَقَالَ: «عِنْدَمَا أَتَيْتُ إِلَى مَوْرَتُونِ قَبْلَ عَامَيْنِ، لَمْ تَكُنْ بِهَا مَدْرَسَةٌ لِلْأَطْفَالِ الْفُقَرَاءِ، فَأَنْشَأْتُ وَاحِدَةً لِلْبَنِينَ. وَالْآنَ، وَبَعْدَ أَنْ حَصَلْتُ عَلَى مَبْنَى آخَرَ لِإِقَامَةِ مَدْرَسَةٍ لِلْبَنَاتِ، فَإِنِّي أَرْغَبُ فِي تَعْيِينِ مُعَلِّمَةٍ لِهَذِهِ الْمَدْرَسَةِ الْجَدِيدَةِ...»

وَعَرَضَ عَلَيَّ مَسْتَرُ سَانَتِ جُونِ هَذِهِ الْوَظِيفَةَ، ثُمَّ أَضَافَ قَائِلًا: «سَيَكُونُ مُرْتَبُكَ ثَلَاثِينَ جُنِيَهًا فِي الْعَامِ، وَسَوْفَ تُقِيمِينَ فِي مَنْزِلٍ صَغِيرٍ بَسِيطٍ الرِّيشِ بِالْقُرْبِ مِنْ مَبْنَى الْمَدْرَسَةِ، كَمَا سَوْفَ تُخَصَّصُ لِيْخْدَمَتِكَ فَتَاةٌ مِنْ مُؤَسَّسَةِ رِعَايَةِ الْفُقَرَاءِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ. وَقَدْ تَكَفَّلَتْ بِتَقَاتِ الْمَنْزِلِ وَالْخَادِمِ الْإِنْسَةِ أُولَيْفَرِ، ابْنَةُ مَسْتَرِ أُولَيْفَرِ، صَاحِبِ مَسْبِكِ الْمَعَادِنِ الشَّهِيرِ، وَالرَّجُلِ الثَّرِيِّ الْوَحِيدِ فِي الْمِنْطَقَةِ.»

فَرِحْتُ فَرَحًا عَظِيمًا، وَأَجَبْتُ: «أَقْبَلُ هَذَا الْعَمَلَ بِكُلِّ سُورٍ... سَوْفَ أَسَافِرُ غَدًا لِإِفْتِتَاحِ الْمَدْرَسَةِ بَعْدَ أُسْبُوعٍ.»

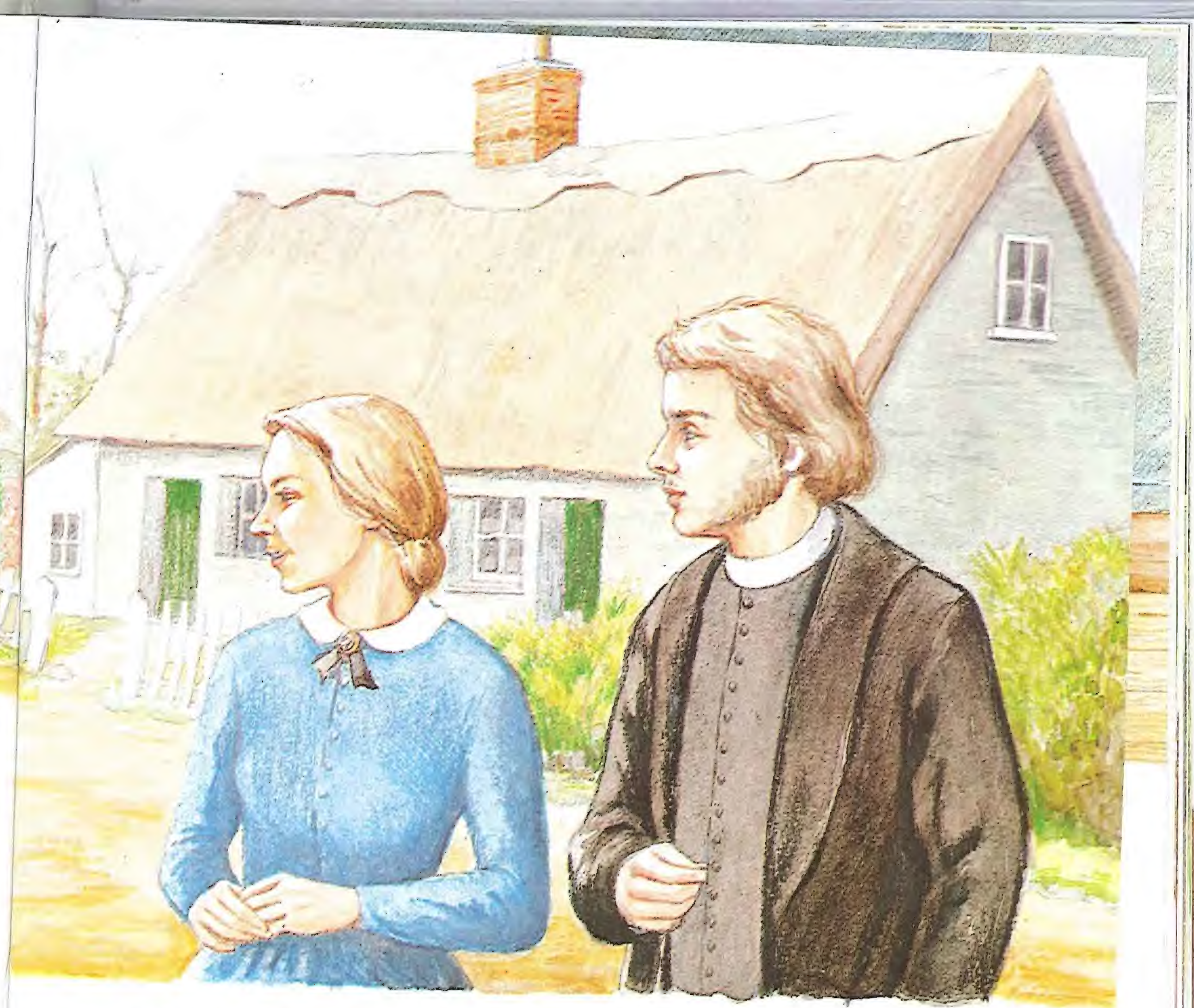
فِي الصَّبَاحِ التَّالِيِ رَحَلْتُ إِلَى مَوْرَتُونِ كِي أُعِدَّ الْمَدْرَسَةَ لِلْإِفْتِتَاحِ، كَمَا سَافَرْتُ دِيَانَا وَمَارِي فِي الْيَوْمِ الَّذِي يَلِيهِ لَاسْتِثْنَاةٌ عَمَلِيَهُمَا. وَهَكَذَا أَغْلَقْتُ مَسْتَرَ سَانَتِ جُونِ وَخَادِمَتُهُ حَنَّةَ بَيْتِ الْعَائِلَةِ الْعَتِيدِ الْقَائِمَ عِنْدَ طَرَفِ الْمُسْتَنْقَعِ، وَعَادَا إِلَى مَسْكَنِ رَاعِي الْكَنِيسَةِ فِي مَوْرَتُونِ.



وَبَدَتْ لِي حَيِّئِدِ فَتَاةً سَاحِرَةً جَذَابَةً ، تُثَرِّثُ فِي مَرَحٍ ، وَتَسْلُكُ وَفْقَ طَبِيعَتِهَا
دُونَ تَكَلُّفٍ . وَقَدْ أَبَدْتُ إِعْجَابَهَا بِعَمَلِي يَوْمِيذٍ فِي حِمَاسٍ يَنُمُّ عَنْ إِحْسَاسٍ صَادِقٍ .
غَيْرَ أَنَّنِي لَاحَظْتُ أَنَّ مَسْتَر سَانتَ جُونِ قَدْ تَوَلَّاهُ الْعُبُوسُ فَجَاءَةً ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ
انْتَحَلَ عُذْرًا لِيَسْتَأْذِنَ فِي الْإِنْصِرَافِ .

لَقِيتُ بِادِي الْأَمْرِ صُعُوبَةً فِي التَّفَاهُمِ مَعَ تَلْمِيزَاتِي ، فَقَدْ كُنَّا نَتَحَدَّثُ بِلَهْجَاتٍ
مُخْتَلِفَةٍ ، فَضْلًا عَنْ اخْتِلَافِ الْبَيِّنَاتِ وَالثَّقَافَاتِ . وَلَكِنْ مَا إِنْ زَادَتْ مَعْرِفَتِي بِهِنَّ حَتَّى
وَجَدْتُ أَنَّ بَعْضَهُنَّ يَسْتَطِيعُ الْقِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ إِلَى حَدٍّ مَا ، فَشَرَعْتُ فِي إلقاءِ دُرُوسٍ
عَلَيْهِنَّ فِي مَادَّتِي التَّارِيخِ وَالْجُغْرَافِيَا ، وَفِي تَعْلِيمِهِنَّ أَشْغَالَ الْإِبْرَةِ . وَنَمَا حُبُّهُنَّ لِي ،
كَمَا نَمَتْ ثِقَتُهُنَّ بِي كَذَلِكَ ، وَسُرْعَانِ مَا أَخَذْنَ يُحْضِرْنَ وَالِدِيهِنَّ لِلتَّعَرُّفِ إِلَيَّ . وَلَمْ
يَمُضِ وَقْتُ طَوِيلٍ حَتَّى شَعَرْتُ بِأَنَّنِي قَدْ أَصْبَحْتُ مَحْبُوبَةً تَمَامًا .

وَاعْتَادَتْ رُوزَامَنْدُ أُولِيْفَرُ أَنْ تَزُورَنِي فِي أَوْقَاتٍ مُتَقَارِبَةٍ . كَانَتْ فَتَاةً جَمِيلَةً
مَرَحَةً - وَإِنْ شَابَهَا شَيْءٌ مِنَ التَّرْقِ وَالْعُرُورِ - كَمَا كَانَتْ كَرِيمَةً وَسَخِيَّةً فِي الْعَطَاءِ .
وَتَأَكَّدُ لِي بِشَكْلِ قَاطِعٍ إِعْجَابُهَا بِمَسْتَر سَانتَ جُونِ وَسَعْيِهَا فِي التَّوَدُّدِ إِلَيْهِ ، وَإِنْ
أَحْجَمَ - مِنْ نَاحِيَّتِهِ - عَنْ مُسَايَرَتِهَا فِي هَذَا الْمِضْمَارِ .

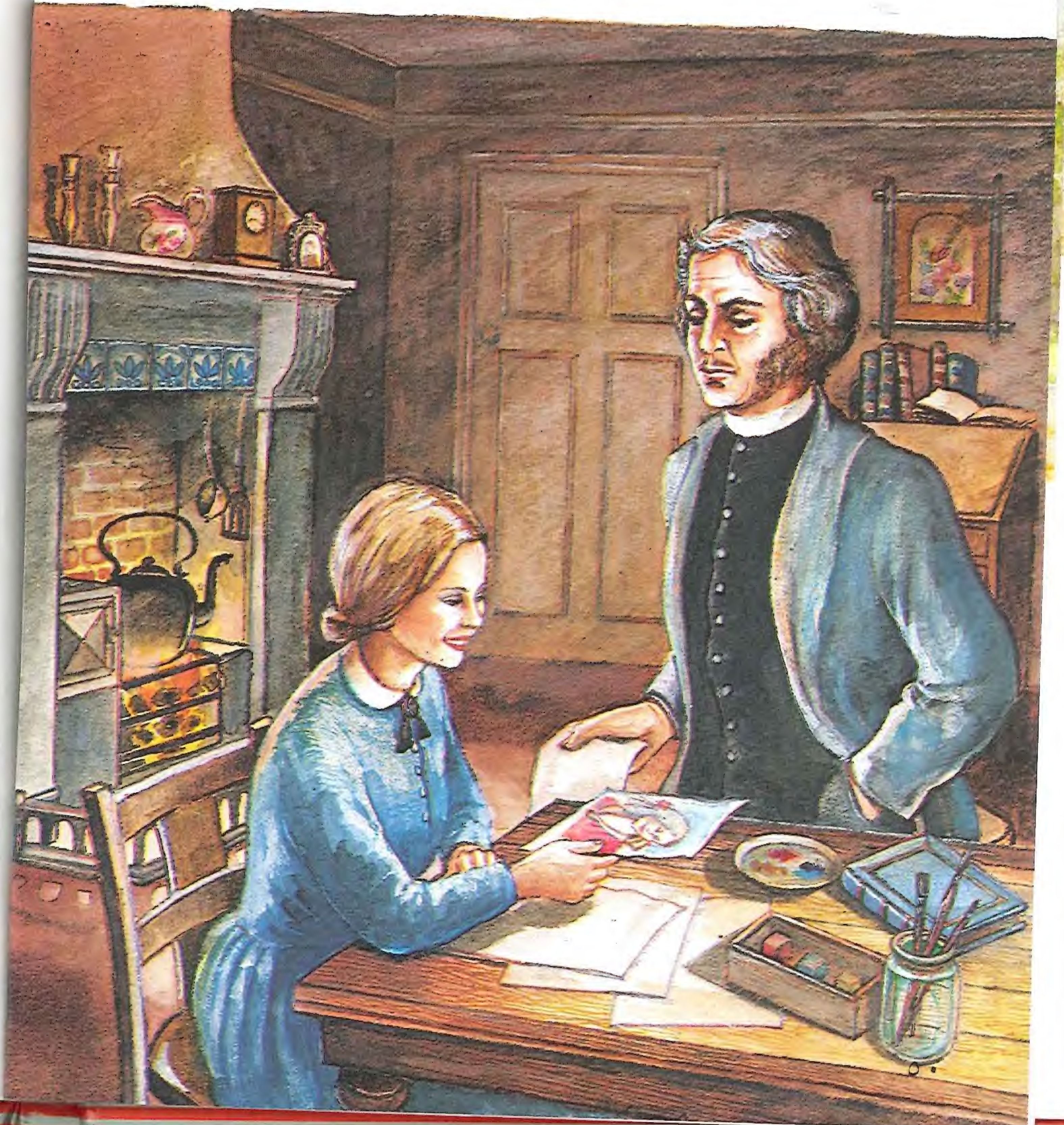


كَانَ مَنْزِلِي الصَّغِيرُ التَّابِعُ لِلْمَدْرَسَةِ ذَا أَثَاثٍ مُتَوَاضِعٍ ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ مُرِيحًا إِلَى
حَدِّ كَبِيرٍ . وَكَانَ يَتَكَوَّنُ مِنْ حُجْرَةٍ لِلْمَعِيشَةِ فِي الدَّوْرِ السُّفْلِيِّ ، وَأُخْرَى لِلتَّوَمِ فِي
الطَّابِقِ الَّذِي يَعْلوهُ . وَالتَّحَقَّتْ بِالْمَدْرَسَةِ عِشْرُونَ تَلْمِيزَةً فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ لِلدَّرَاسَةِ .

وَمَعَ وَثُوقِي التَّامِّ بِأَنَّ هَجْرِي لِمَسْتَر رُوتشستر وَثُورنْفيلد كَانَ قَرَارًا صَائِبًا
حَكِيمًا ، إِلَّا أَنَّنِي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَدْفَعَ عَنْ نَفْسِي شُعُورًا بِالتَّعَاسَةِ وَالْإِكْتِثَابِ ... كُنْتُ
أُحِسُّ عَلَى نَحْوِ مَا بِالْهَوَانِ وَالْإِنْحِطَاطِ .

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ حَضَرَ مَسْتَر سَانتَ جُونِ رِفْرُزَ يَحْمِلُ هَدِيَّةً لَطِيفَةً أَرْسَلَتْهَا لِي
أُخْتَاهُ : وَكَانَتْ عُلْبَةً أَلْوَانٍ لِلرَّسْمِ وَبِضْعَ فُرْشَاتٍ لِلتَّلْوِينِ . وَبَيْنَمَا كُنَّا نَتَحَدَّثُ ، جَاءَتْ
الْآنِسَةُ رُوزَامَنْدُ أُولِيْفَرُ : الشَّابَّةُ الرَّقِيقَةُ الْعَطُوفُ الْمُتَكَفِّلَةُ بِنَفَقَاتِ الْمَنْزِلِ وَالْخَادِمِ .

بَيْنَمَا كُنْتُ أَتَحَدَّثُ إِلَى الرَّجُلِ ذَاتَ يَوْمٍ، تَجَرَّأْتُ عَلَى الْإِفْصَاحِ عَمَّا يَدُورُ فِي خَلْدِي مِنْ طُنُونِ حَوْلِ حُبِّهِ لِلْآنِسَةِ روزامند واحْتِمَالِ زَوَاجِهِ مِنْهَا. لَكِنِّي لَمْ أَحْظَ مِنْهُ بِجَوَابٍ. ثُمَّ أَظْلَعْتُهُ عَلَى صُورَةٍ رَسَمْتُهَا لِلْآنِسَةِ روزامند، فَتَنَظَّرَ إِلَيْهَا بِإِمْعَانٍ وَبَدَأَ كَأَنَّمَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ مُفَاجَأَةً صَاعِقَةً.



فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ اشْتَدَّ الْبَرْدُ وَهَظَلَتْ أَمْطَارٌ ثَلْجِيَّةٌ، فَرَأَيْتُ مِنَ الْأَنْسَبِ أَنْ أَمْكُثَ إِلَى جِوَارِ الْمَدْفَأَةِ، وَأَقْطَعَ الْمَسَاءَ فِي الْقِرَاءَةِ وَالرَّسْمِ. وَفِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ فَاجَأَنِي مَسْتَرُ سَانْتُ جُونُ بِالزِّيَارَةِ، وَكَانَ يَبْدُو مُتَعَبًا مَكْدُودًا.

جَلَسَ بُرْهَةً صَامِتًا، ثُمَّ قَالَ لِي: «حَسَنًا، جِئْتُ فِي هَذَا الْوَقْتِ لِأُفْضِيَ إِلَيْكَ بِأَشْيَاءَ تَهْمُكَ، يَا جِين. سَوْفَ أَقْصُ عَلَيْكَ قِصَّةَ غَرِيبَةٍ نَوْعًا مَا: ذَاتَ يَوْمٍ، تَزَوَّجَ قَسٌّ بَسِيطٌ ابْنَةً رَجُلٍ غَنِيٍّ مِنْ آلِ رِيد. وَعَلَى حِينِ غِرَّةٍ، مَاتَ الزَّوْجَانِ فِي رِيْعَانِ الشَّبَابِ بَعْدَ أَنْ أَنْجَبَا طِفْلَةً صَغِيرَةً. وَكَانَ لِتِلْكَ الطِّفْلَةِ خَالَ هُوَ السَّيِّدُ رِيدُ الْإِبْنِ، فَاتَى بِهَا إِلَى بَيْتِهِ لِتَعِيشَ مَعَ زَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ. وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ الْخَالَ بَعْدَ سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ، فَسَارَعَتْ زَوْجَتُهُ - الَّتِي كَانَتْ تَمُوتُ الْفَتَاةَ - بِإِزْسَالِهَا إِلَى مَدْرَسَةٍ لَوُودِ الدَّخْلِيَّةِ. وَفِي حَوَالِي التَّاسِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِهَا، غَادَرَتِ الْمَدْرَسَةَ وَاشْتَغَلَتْ مُعَلِّمَةً لِلْأَطْفَالِ فِي بَيْتِ رَجُلٍ ثَرِيٍّ يُدْعَى إِدْوَارْدُ رُوتشستر.

صَحْتُ قَائِلَةً فِي ذَهُولٍ: «كَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِكَ؟»

أَجَابَ الصَّدِيقُ: «إِنْتِظِرِي إِلَى أَنْ أُتِمَّ هَذِهِ الْقِصَّةُ: ... وَكَانَ لِهَذِهِ الْفَتَاةِ الَّتِي تُدْعَى جِينِ إِيرِ عَمُّ اسْمُهُ جُونُ إِيرِ. وَلَقَدْ كَلَّفَ هَذَا الْعَمُّ مُحَامِيًّا مِنْ لَنْدُنْ، اسْمُهُ مَسْتَرُ بَرِجْزُ، بِالْبَحْثِ عَنْ ابْنَةِ أَخِيهِ. وَلَمَّا كَانَ الْعَمُّ - أَيُّ مَسْتَرِ جُونِ إِيرِ - هُوَ خَالِي فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، فَقَدْ طَلَبَ مِنِّي مَسْتَرُ بَرِجْزُ أَنْ أُعَاوَنَهُ فِي الْبَحْثِ عَنِ الْفَتَاةِ. وَتَبَعْنَا أَخْبَارَهَا إِلَى أَنْ وَصَلْنَا إِلَى قَصْرِ ثورنفلد، غَيْرَ أَنَّنَا فَشَلْنَا فِي الْعُثُورِ عَلَيْهَا رَغْمَ مَا بَدَّلْنَاهُ مِنْ جَهْدٍ، إِذْ إِنَّهَا كَانَتْ قَدْ غَادَرَتِ الْقَصْرَ دُونَ أَنْ تَتْرَكَ أَيَّ إِشَارَةٍ تَنِيْمُ عَنِ الْجِهَةِ الَّتِي قَصَدَتْ إِلَيْهَا.»

قُلْتُ فِي ذَهُولٍ: «لَكِنْ كَيْفَ عَرَفْتَ أَنِّي أَنَا جِينِ إِيرِ؟»

أَجَابَ بِابْتِسَامَةٍ: «عَرَفْتُهُ حِينَ قَرَأْتُ تَوْقِيعَكَ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي رَسَمْتُهَا لِلْآنِسَةِ روزامند.»

ثُمَّ أَرَدَفَ قَائِلًا: «إِنَّ هُنَاكَ نَبَأًا هَامًّا أُرِيدُ أَنْ أُفْضِيَ الْآنَ إِلَيْكَ بِهِ: هُوَ أَنَّ عَمَّكَ، مَسْتَرِجُونِ إِيرِ، أَوْرَثَكَ ثَرَوَتَهُ كُلَّهَا الَّتِي تُقَدَّرُ بِعِشْرِينَ أَلْفَ جُنِيهِ.»

أَخْرَسْتَنِي الْمُفَاجَأَةُ فَعَجَزْتُ عَنِ التُّطْقِ ، ثُمَّ أَخَذْتُ تَتَكَشَّفُ الْحَقِيقَةُ الْمُدْهِلَةُ
أُمَامِي بِالتَّدْرِيجِ ، كَمَا تَسَلَّلُ أَشِعَّةُ الْفَجْرِ مِنْ عَتَمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ .



أَخِيرًا قُلْتُ : « حَسَنًا ، هَذَا نَبَأٌ مُثِيرٌ ! .. وَلَكِنْ إِذَا كَانَ عَمِّي - جُون إِيْر - هُوَ خَالُكَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ، إِذَا فَأَمَّاكَ هِيَ عَمَّتِي بِالطَّبْعِ ، كَمَا أَنَّ دِيَانَا وَمَارِي وَأَنْتَ أَبْنَاءُ عَمَّتِي . سَنَتَقَاسَمُ ثَرَوَةَ الْعَمِّ بَيْنَنَا بِالتَّسَاوِي ، لِيَحْصُلَ كُلُّ مِنَّا عَلَى خَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْجُنَيْهَاتِ . »

عَبَثًا حَاوَلَ مَسْتَر سَانْت جُون أَنْ يَتَنَبَّهَ عَنْ عَزْمِي ذَلِكَ ، وَذَهَبَتْ كُلُّ مُحَاوَلَاتِهِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَذْرَاجَ الرِّيَّاحِ . وَقُلْتُ : « سَوْفَ أَسْتَمِرُّ فِي التَّدْرِيسِ إِلَى أَنْ تَجِدَ مِنْ يَخْلِفُنِي فِي هَذَا الْمَكَانِ ... عَلَى أَنَّ سَوْفَ نَجْتَمِعُ مَعًا كَعَائِلَةٍ وَاحِدَةٍ فِي مَنْزِلِكَ الْقَائِمِ إِلَى جِوَارِ الْمُسْتَنْقَعِ ، لِقَضَاءِ إِجَازَاتِ الْأَعْيَادِ . »

قَبْلَ خُلُولِ الْعِيدِ بِعِدَّةِ أَيَّامٍ ، كَانَتْ جَمِيعُ الْإِجْرَاءَاتِ الْقَانُونِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِتَرَكَةِ الْعَمِّ قَدْ تَمَّتْ ، كَمَا تَهَيَّأَتْ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ لِتَرْكِ الْمَدْرَسَةِ ، وَبَعْدَ أَنْ وَدَّعْتَنِي التَّلْمِيزَاتُ وَدَاعًا حَارًّا مُؤَثِّرًا يَنْبُثُ عَنْ شُكْرِ وَعِزْفَانٍ بِالْجَمِيلِ ، عُدْتُ وَمَعِيَ حَتَّةٌ إِلَى بَيْتِ آلِ رِقْرَزِ الْعَتِيدِ . وَكَانَ الْبَيْتُ مَهْجُورًا مُنْذُ عِدَّةِ شُهُورٍ فَقَضَيْنَا أُسْبُوعًا فِي تَنْظِيفِهِ وَتَرْتِيبِهِ قَبْلَ أَنْ تَحْضُرَ دِيَانَا وَمَارِي لِلْإِحْتِفَالِ بِالْعِيدِ .

وَحَضَرَتْ دِيَانَا وَمَارِي فَعَمَّمَا الْفَرْحَ وَالسُّرُورَ ، وَاجْتَمَعَ شَمْلُنَا فِي الْبَيْتِ كَعَائِلَةٍ مُتْرَابِطَةٍ سَعِيدَةٍ . غَيْرَ أَنَّي لَاحِظْتُ فِي ضَيْقٍ شَدِيدٍ أَنَّ مَسْتَر سَانْت جُون أَضْحَى قَلِقًا كَثِيرَ الشُّرُودِ ، وَلَمْ يَعُدْ يَهْتَمُّ بِمَنْزِلِهِ كَذِي قَبْلَ . وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّهُ أَخَذَ يُعْرِينِي بِالِاشْتِرَاكِ مَعَهُ فِي تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْهِنْدِيَّةِ ، وَمُشَارَكَتِهِ السَّيْرِ لِمَسَافَاتٍ طَوِيلَةٍ فِي الْعَرَاءِ .

فُوجِئْتُ بَعْدَ عِدَّةِ أَسَابِيعَ بِأَنَّ رُوزَامَنْدَ أُولِيْقَر ، عَلَى وَشْكِ الْاِقْتِرَانِ بِابْنِ رَجُلٍ مِنْ كِبَارِ الْمَلَائِكِ فِي الرَّيْفِ الْمُجَاوِرِ لِبَلَدَتِهَا . وَاعْتَمَّتْ دِيَانَا وَمَارِي لِهَذَا النَّبَأِ إِذْ كَانَتَا تَتَوَقَّعَانِ أَنْ يَطْلُبَ أَخُوهُمَا يَدَهَا ، وَأَنْ يَتَنَبَّهَ ذَلِكَ عَنْ فِكْرَةِ السَّفَرِ إِلَى الْهِنْدِ .

وَعَلَى عَكْسِ أُخْتِيهِ ، تَوَلَّى مَسْتَر سَانْت جُون ارْتِيَاخَ شَدِيدٍ لِهَذَا النَّبَأِ ... ذَلِكَ أَنَّ صِرَاعًا عَنِيفًا كَانَ يَدُورُ فِي دَاخِلِهِ حَوْلَ التَّقَدُّمِ لِلزَّوْاجِ بِالْأَنَسَةِ رُوزَامَنْدَ : أَمِنْ الصَّوَابِ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى الزَّوْاجِ مِنْهَا لِمُجَرَّدِ أَنَّهَا تَمِيلُ إِلَيْهِ ، أَوْ لِأَنَّهَا ثَرِيَّةٌ ؟

لَكِنَّهُ اسْتَرَاحَ نَفْسًا بَعْدَ أَنْ حُسِمَ هَذَا الصَّرَاعُ ... وَقَالَ لِي وَكَأَنَّهُ يَنْفُضُ عَنْ صَدْرِهِ عِبَثًا ثَقِيلًا : « لَقَدْ حَارَبْتُ مَعْرَكَتِي ضِدَّ إِغْرَاءِ الْعَالَمِ ، يَا جِين ، وَانْتَصَرْتُ . »

ذات صباح صرّح لي بِحاجّته الماسّة إلى زَوْجَةٍ تَصَحُّبُهُ إلى بلادِ الهِنْدِ، ثُمَّ فَاجَأَنِي بِرَغْبَتِهِ فِي أَنْ أَكُونَ أَنَا هَذِهِ الزَّوْجَةُ.

أَكَانَ ذَلِكَ هُوَ السَّبَبُ فِي مُحَاوَلَةِ إِفْنَاعِي بِمُشَارَكَتِهِ فِي تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْهِنْدِيَّةِ؟ عَلَى أَنَّنِي أَجَبْتُهُ فِي أَسْفٍ عَمِيقٍ: «لَا أَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، يَا مَسْتَرُ سَانْتِ جُون، فَأَنَا أُحِبُّكَ مِثْلَمَا تُحِبُّ فَتَاةً أَخَاهَا... وَلَكِنِّي - فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ - أَكُنُّ لَكَ كُلَّ تَقْدِيرٍ وَاحْتِرَامٍ!»

غَيَّرَ أَنَّهُ رَفَضَ الْاسْتِسْلَامَ، وَرَاحَ يُحَاوِلُ إِفْنَاعِي بِشَتَّى الْوَسَائِلِ. وَكُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ لَا أَمَلَ هُنَاكَ فِي أَنْ أَرَى حَبِيبِي إِدْوَارْدَ روتشسترَ مَرَّةً أُخْرَى، لَكِنِّي كُنْتُ وَاثِقَةً بِأَنَّنِي لَنْ أُنْسَاهُ. وَوَسَطَ عَذَابَاتِ الْحِيرَةِ وَالشَّكِّ، قُلْتُ أَخِيرًا لِصَدِيقِي اللَّحُوحِ: «قَدْ أَفَكَّرْتُ فِي الذَّهَابِ مَعَكَ إِلَى الْهِنْدِ كَزَمِيلَةٍ مُسَاعِدَةٍ فِي الْعَمَلِ، وَلَكِنْ لَيْسَ كَزَوْجَةٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ.»

غَيَّرَ أَنَّ هَذَا الْإِفْتِرَاحَ لَمْ يَلْقَ قَبُولًا مِنْ مَسْتَرِ سَانْتِ جُون الَّذِي كَانَ مُصِرًّا عَلَى أَنْ أَصْحَبَهُ كَزَوْجَةٍ، وَهَكَذَا انْصَرَفَ عَنِّي غَاضِبًا.

مَرَّ الْيَوْمُ التَّالِي دُونَ أَنْ يَتَحَدَّثَ إِلَيَّ، وَكَأَنَّ رَفْضِي الزَّوَاجِ مِنْهُ سَبَبٌ كَافٍ لِأَنْ يَزُورَ عَنِّي فِي حَقِّقٍ! وَأَصْبَحْنَا نَعِيشُ كَعَرِيبَيْنِ تَحْتَ سَقْفٍ وَاحِدٍ، يَلْفُنَا جَوٌّ مِنَ الْحَيْطَةِ وَالْحَذَرِ. وَسُرْعَانَ مَا أَحَسْتُ دِيَانَا وَمَارِي بِأَنَّ شَيْئًا مَا قَدْ حَدَثَ بَيْنِي وَبَيْنَ مَسْتَرِ سَانْتِ جُون، فَرَأَيْتُ مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ أَعْتَرِفَ لَهُمَا بِكُلِّ شَيْءٍ. وَأَخْبَرْتُنِي الْأَخْتَانِ أَنَّهُمَا كَانَا تَوْمَلَانِ فِي أَنْ أَكُونَ زَوْجَةً لِأَخِيهِمَا، غَيْرَ أَنَّهُمَا شَجَبَتَا فِكْرَةَ ذَهَابِي مَعَهُ إِلَى الْهِنْدِ، وَقَالَتَا إِنَّهَا مَحْضُ جُنُونٍ.

وَأَرْدَقْتُ دِيَانَا قَائِلَةً: «أَنْتِ رَقِيقَةٌ مُرْهَفَةٌ، يَا جِين، وَلَا تَسْتَطِيعِينَ الْحَيَاةَ فِي جَوِّ الْهِنْدِ الْحَارِّ الْمُتَّقِدِ، وَلَكِنْ إِذَا مَا تَزَوَّجْتِ مِنْ سَانْتِ جُون فَلَعَلَّكَ تَسْتَطِيعِينَ إِفْنَاعَهُ بِالْبَقَاءِ هُنَا فِي إِنْجِلْتِرَا.»

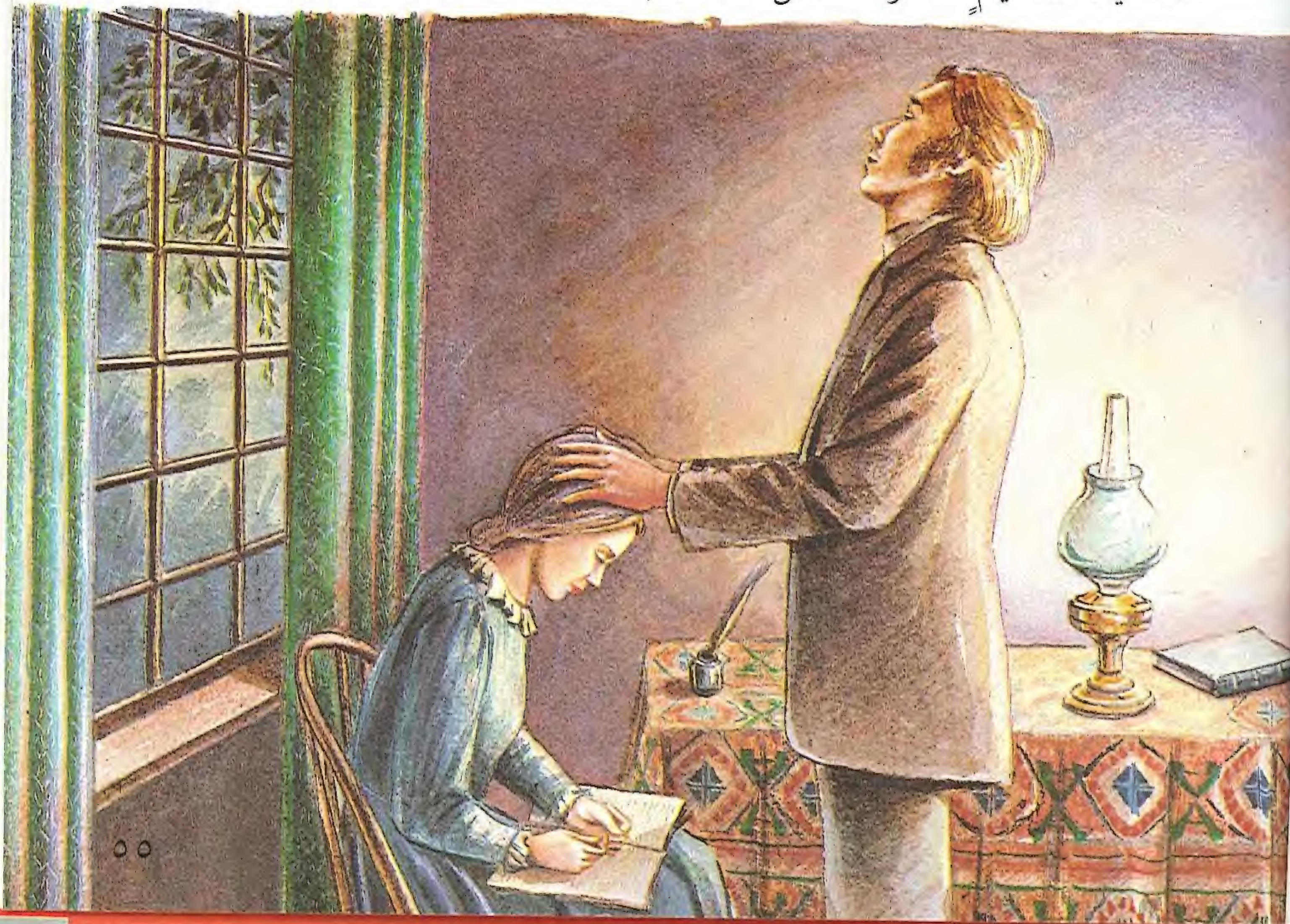
فَأَجَبْتُهَا عَلَى الْفَوْرِ: «كَلَّا، يَا عَزِيزَتِي دِيَانَا، فَقَدْ اسْتَقَرَّ عَزْمُهُ عَلَى الرَّحِيلِ، كَمَا أَنَّنِي لَا أَسْتَطِيعُ الزَّوَاجَ مِنْهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ، إِذْ لَمْ أُحِسَّ نَحْوَهُ بِعَاطِفَةِ الْحُبِّ الْخَاصَّةِ الَّتِي تَجْعَلُنِي رَاغِبَةً فِي أَنْ أَكُونَ زَوْجَةً لَهُ.»

كَانَ مَسْتَرُ سَانْتِ جُون عَلَى وَشَكِّ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى كِمْبَرْدِجِ فِي مَهْمَةٍ تَسْتَعْرِقُ أُسْبُوعًا. وَفِي مَسَاءِ الْيَوْمِ السَّابِقِ عَلَى السَّفَرِ، بَدَأَ رَائِقَ الْمِزَاجِ، وَأَخَذَ يُحَدِّثُنِي فِي رِقَّةٍ وَلُطْفٍ، مِمَّا جَعَلَنِي أَشْعُرُ بِالذَّنْبِ، وَبِأَنَّنِي كُنْتُ قَاسِيَةً إِزَاءَهُ فِيمَا مَضَى أَكْثَرَ مِمَّا يَجِبُ.

وَفِي اجْتِمَاعِنَا الْعَائِلِيِّ الْمُعْتَادِ فِي الْمَسَاءِ، أَخَذَ يَقْرَأُ بِصَوْتِهِ الْمُؤَثِّرِ الْأَخَاذَ فَقَرَاتٍ تَصِفُ حَالَ الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ مِمَّنْ لَا عَائِدَ لَهُمْ وَلَا مُعِينَ. ثُمَّ أَعْقَبَ ذَلِكَ بِعِظَةٍ بِالْعِظَةِ الْقَوَّةِ، وَقَادِرَةٍ - بِسُمُومِهَا وَبَسَاطَتِهَا - عَلَى التَّفَازِ إِلَى أَعْمَاقِ الْقَلْبِ. وَفِي خِتَامِ تِلْكَ الْعِظَةِ الشَّائِقَةِ، نَظَرَ إِلَيَّ الرَّجُلُ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ:

- أَشْعُرُ الْآنَ أَنَّ اللَّهَ يَدْعُوكِ، يَا جِين، لِمُعَاوَنَتِي فِي خِدْمَةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ فِي الْهِنْدِ، فَهَلْ تُصَمِّينَ أُذُنِيكَ عَنْ سَمَاعِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ؟

وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَفَوَّهُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَضَعَ يَدَهُ بِرِفْقٍ فَوْقَ رَأْسِي. وَأَحْسَسْتُ بِلَمْسَةٍ عُلُويَّةٍ سَاحِرَةٍ تَهْزُنِي مِنَ الْأَعْمَاقِ، فَارْتَعَدْتُ مَهَابَةً وَخُشُوعًا، وَأَحْسَسْتُ أَنَّ مُقَاوَمَتِي لَهُ تَنْهَارُ. ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ مَخَافِي أَنْ انْقَشَعَتْ، وَبَدَأَ زَوَاجِي مِنْهُ - الَّذِي كَانَ مُسْتَحِيلًا مُنْذُ أَيَّامٍ - أَمْرًا مُحْتَمَلًا الْحُدُوثِ...



كانت العُرْفَةُ الْمُعْتَمَةُ مَلِيَّةً بِالْخَيَالَاتِ وَالرُّؤَى حِينَ جَلَسْتُ فِيهَا وَسَانَتْ جُونِ
مُنْفَرِدِينَ ، وَأَخَذَ قَلْبِي يَخْفِقُ بِشِدَّةٍ . وَفَجْأَةً كَادَ نَبْضِي أَنْ يَتَوَقَّفَ ، وَسَرَتْ فِي جَسَدِي
رِعْشَةٌ هَائِلَةٌ . ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتًا يَهْتِفُ بِاسْمِي مُنَادِيًا : « جِين ! ... جِين ! ... جِين ! »
تَلَقَّتُ حَوْلِي فَلَمْ أَرِ أَحَدًا ، فَصَحْتُ فِي أَنْفَاسٍ مُتَقَطَّعَةٍ : « يَا إِلَهِي ! ... مَا هَذَا
الصَّوْتُ ؟ ... مَا هَذَا ؟ »

كَانَ صَوْتًا حَبِيبًا أَذْكُرُهُ جَيِّدًا ... كَانَ هُوَ صَوْتُ إِدْوَارْدِ رَوْتَشْتِرِ قَادِمًا مِنْ
مَكَانٍ لَا أَذْرِيهِ ، وَكَانَ ذَا نَبَرَةٍ غَرِيبَةٍ ، مُخِيفَةٍ ، مُسْتَمِيتَةٍ ، مُتَأَلِّمَةٍ ، وَكَأَنَّ صَاحِبَهُ غَارِقٌ
فِي كَرْبٍ عَظِيمٍ .

رَدَّدْتُ قَائِلَةً بِصَوْتٍ عَالٍ : « إِنِّي قَادِمَةٌ ... إِنِّي قَادِمَةٌ ... إِنْتَظِرْنِي ! ... أَوْه ،
سَوْفَ أَتِي سَرِيعًا ، يَا حَبِيبِي ! »

وَأَنْدَفَعْتُ إِلَى الْحَدِيقَةِ الْخَاوِيَةِ الْمُظْلِمَةِ . وَأَخَذْتُ أَصِيحُ قَائِلَةً : « أَيْنَ أَنْتَ ؟
أَوْه ، أَيْنَ أَنْتَ ؟ »

فَلَمْ أَسْمَعْ إِلَّا صَدَى الصَّوْتِ تُرَدِّدُهُ التَّلَالُ الْقَابِعَةُ خَلْفَ الْوَادِي الصَّغِيرِ : « أَيْنَ
أَنْتَ ؟ ... أَوْه ، أَيْنَ أَنْتَ ؟ »

وَأَرْهَفْتُ السَّمْعَ ... كَانَتْ الرِّيَّاحُ تَنُوحُ فَوْقَ أَشْجَارِ التَّنُّوبِ وَتُظَلِّقُ صَفِيرَهَا
الْخَافِتَ الْحَزِينَ ، وَكَأَنَّهَا بِذَلِكَ تُبَدِّدُ وَخْشَةَ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ فَوْقَ تِلْكَ الْأَرْضِ السَّاكِتَةِ
الْمُقْفَرَةِ .

وَجَرَيْتُ إِلَى دَاخِلِ الْبَيْتِ ، وَرَأَيْتُ مَسْتَرَّ سَانَتْ جُونِ فِي مُوَجَّهَتِي ، فَطَلَبْتُ
إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَنِي وَشَأْنِي . وَفَعَلَ الرَّجُلُ وَقَدْ تَمَلَّكَتُهُ دَهْشَةٌ شَدِيدَةٌ . ثُمَّ أَنْدَفَعْتُ إِلَى
حُجْرَتِي ، وَرَكَعْتُ عَلَى قَدَمَيَّ ، وَسَكَبْتُ نَفْسِي فِي صَلَاةٍ شُكْرٍ حَارَّةٍ لِلْعَلِيِّ الْقَدِيرِ .
كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ صَوْتَ إِدْوَارْدِ هُوَ الَّذِي نَادَانِي مُنْذُ لَحَظَاتٍ لَأَذْهَبَ إِلَى
ثُورَنْفِيلْدَ ، وَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى تَلْبِيَةِ النَّدَاءِ .. لَقَدْ كَشَفَتْ لِي رُوحِي أَخِيرًا عَنْ مَقْصِدِهَا ،
وَأَعْلَمْتَنِي بِمَا يَجِبُ أَنْ أَفْعَلَهُ ... وَاسْتَلْقَيْتُ فِي فِرَاشِي رَاضِيَةً النَّفْسِ ، مُسْتَقَرَّةً
الْفِكْرَ ، هَانِيَةً الْوُجْدَانَ . وَسُرْعَانَ مَا اسْتَعْرَقْتُ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ .



كانت رحلة العودة إلى ثورنفيلد طويلة ومُرهِقَةً، ولكن ما إن اقتربت من نهايتها حتى غادرت العربة عند أقرب خان، فندق صغير، حيث تركت حقيبة سفري. ثم استأنفت الرحلة سيرًا على قدمي لمسافة ميلين أو أكثر عبر الحقول.

لكم كانت الشجيرات المحيطة بالمكان نضرة ومزهرّة، ولكم بدا المكان مختلفًا عن مورتون الكئيبة الجذباء! وعبرت المروج الخضراء التي طالما سرت على أرضها، وأتيت أخيرًا إلى الغابة الصغيرة، ثم البستان. ووقفت خلف شجيرة لأرغب القصر الذي طال حنيني إليه. ولكن يا لهول ما رأيته! ... لم يكن هناك قصر على الإطلاق، بل مجرد أطلال سوداء ... لا سطح، ولا شرفات، ولا مداخل ... لقد استحال كل شيء إلى ركام!

كدت أجن من هول الصدمة، وهرعت عائدة إلى الخان، فقال لي صاحبه: «إن زوجة السيد روتشستر المخبولة قد أشعلت النار في القصر. وإن السيد روتشستر قد افتحم النيران إلى أن تمكن من إنقاذ الخدم ومسز فيرفاكس.»



ثم استأنف صاحب الخان حديثه قائلاً: «وحاول مستر روتشستر بعد ذلك أن يصعد في ضوء اللهب المتأجج إلى سطح القصر لإنقاذ المرأة المجنونة التي كانت واقفة تصرخ هناك، ولكن سرعان ما ألقت المرأة بنفسها من عل فلاقته حتفها. ولم يلبث السطح أن تهاوى فوق رأس الرجل أثناء عودته إلى أسفل. وتطوع شهود الحادث إلى نجدته قبل أن يدركه الموت، غير أن إحدى يديه كانت قد احترقت تمامًا، كما فقدت كلتا عينييه الإبصار. وهو الآن يعيش في رعاية بعض الخدم في منزل صغير في عزبة، على مقربة من هذا الخان.» وما إن فرغ الرجل من قصته حتى استأجرت عربة الصغيرة لتحملني إلى العربة.

كان المنزل قديمًا متهالكًا، وكان يملكه والد مستر روتشستر الذي اشترى العربة منذ زمن بعيد، غير أن العائلة لم تقم فيه على الإطلاق. ووصلت أخيرًا إلى المنزل. وتوقفت على بعد خطوات منه، وأخذت أطلع إليه، فرأيت - لفرحتي الغامرة - حبيبي إدوارد يخرج من الباب الأمامي! ... كان يسير ببطء، متحسّسًا طريقه بيده اليمنى، بينما دسّت اليسرى في جيب معطفه.

وبعد بضع خطوات مترددة توقفت في صمت. ثم أتى الخادم ليعود به إلى الداخل. وتلّبت بضع دقائق، ثم قرعت الباب. وفتحته فتاة عرفتني في الحال ... كانت هي ماري الخادمة في قصر ثورنفيلد سابقًا.

قلت لها بهدوء، وأنا لا أزال واقفة بالباب: «كيف حالك، يا ماري؟»
أذهلتها المفاجأة. ثم لم تلبث أن صاحت قائلة: «رباه!.. أحمًا أنت هي الآنسة جين؟... تفضلي بالدخول!»

وتبعته إلى حجرة المطبخ، وطلبت إليها أن تعد لي غرقة خاصة. وفي تلك اللحظة قرع جرس الرذهة، فأتت ماري ببعض الشموع ووضعتها على طبق كبير، وإلى جوارها كوب من الماء. بادرتها بالسؤال: «أهذا ما دق الجرس في طلبه؟»
- أجل. إنه يطلب - دائمًا - شموعًا عند العسق، برغم أنه كفيف لا يبصر!
- حسنًا، يا ماري، دعيني أحمل له الماء والشموع، بدلًا منك، هذه المرة.

وارْتَعَشَتْ يَدَايَ ، وَأَنَا أَسِيرُ بِالطَّبَقِ الَّذِي ثُبَّتْ عَلَيْهِ الشَّمْعُ . وكانت نيرانُ
المِدْفَأَةِ خَابِيَةً فِي الرَّدْهَةِ ، كما بَدَتْ الرَّدْهَةُ كَثِيْبَةً وَمَوْحِشَةً . وَتَقَدَّمْتُ نَحْوَ مَسْتَرِ
رُوتشستر - وكان مُسْتَنِدًا كَعَادَتِهِ دَائِمًا إِلَى الرَّفِّ الَّذِي يَغْلُو المِدْفَأَةَ - فَأَلْفَيْتُهُ مَا زَالَ
مَتِينِ البُيَّانِ ، فَاحِجَمَ الشَّعْرَ ، وَإِنْ كَانَتْ مَلَامِحُهُ تَنْطِقُ بِالكَاْبَةِ وَالْحُزَنِ . وكان بِيلُوت ،
كَلْبُهُ المُخْلِصُ ، هُنَاكَ . وَعَرَفَنِي فِي الْحَالِ ، فَأَخَذَ يَتَقَاْفَرُ حَوَالِي . وَهَمَسْتُ قَائِلَةً لَهُ :
« اجْلِسْ ، يَا بِيلُوت . »

اسْتَدَارَ مَسْتَرُ رُوتشستر نَحْوِي قَائِلًا : « أَعْطِنِي المَاءَ ، يَا مَارِي . »
فَنَاوَلْتُهُ الكُوبَ دُونَ أَنْ أَنْبَسَ بِبِنْتِ شَفَةِ ، وَلَكِنْ بِيلُوت تَبِعَنِي وَهُوَ يَعْوِي
فَرِحًا .

« اجْلِسْ ، يَا بِيلُوت ، اجْلِسْ » ، قُلْتُ مَرَّةً أُخْرَى .

فَوَضَعَ مَسْتَرُ رُوتشستر الكُوبَ بِعِنَايَةٍ فَوْقَ المِنْضَدَةِ ، ثُمَّ قَالَ :

- مَارِي ! ... إِنَّكَ أَنْتِ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟

أَجَبْتُهُ بِهَدْوٍ : « كَلَّا ، مَارِي فِي غُرْفَةِ المَطْبَخِ . »

فَهْتَفَ فِي شَيْءٍ مِنَ الانْفِعَالِ : « حَسَنًا ، مَنْ تَكُونِينَ إِذَا ؟ ... تَكَلَّمِي .. مَنْ أَنْتِ ؟ »

قُلْتُ : « بِيلُوت يَعْرِفُنِي ، يَا سَيِّدِي . »

صَاحَ قَائِلًا ، وَهُوَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى الأَمَامِ : « هَذَا حُلْمٌ ! ... إِنَّهُ حُلْمٌ .. »

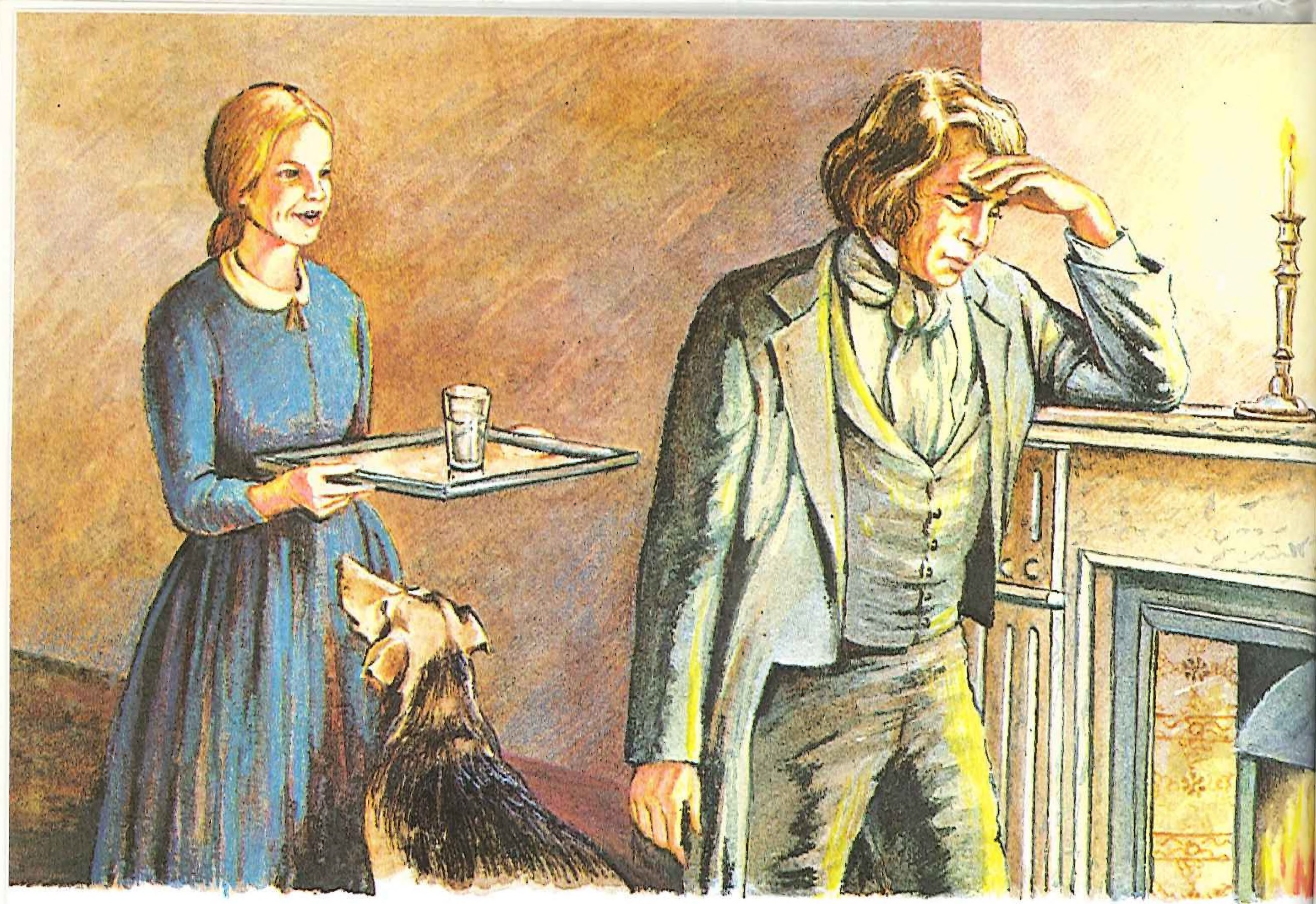
أَجَبْتُ ، وَأَنَا أُمْسِكُ بِيَدِهِ : « إِنَّهُ لَيْسَ حُلْمًا ، يَا سَيِّدِي ، بَلْ حَقِيقَةٌ وَاقِعَةٌ . »

فَلَفَّ ذِرَاعَهُ حَوْلَ كَتِفِي ... وَخَصْرِي ، ثُمَّ صَاحَ : « هَذِهِ هَيْئَةُ جِين ! .. وَهَذَا

صَوْتُهَا كَذَلِكَ ! ... جِين إِير ! ... حَبِيبَتِي جِين .. هَا قَدْ عُذْتُ أَخِيرًا ! »

قُلْتُ فِي فَرَحٍ عَظِيمٍ : « أَجَلْ ، يَا إِدْوَارد ، لَقَدْ عُذْتُ ... عُذْتُ خِصِيصًا مِنْ
أَجْلِكَ . »

وَلَا بُدَّ أَنْ صَوْتِي المُتَهَدِّجُ ، المُفْعَمُ بِالعَاطِفَةِ ، قَدْ كَشَفَ لَهُ حَيْثُ بُدِّعَ بوضوح عَنْ
صِدْقِ مَشَاعِرِي ، وَشِدَّةِ رَغْبَتِي فِي البَقَاءِ إِلَى جِوَارِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ صَاحَ قَائِلًا :



- كَلَّا ، يَا جِين ، كَلَّا ... لَيْسَ مِنَ العَدْلِ أَنْ تُكْرِسَ امْرَأَةٌ شَابَّةً حَيَاتَهَا لِرَجُلٍ
أَعْمَى !

زَادَنِي تَعَلُّقًا بِهِ إِثَارُهُ لِي عَلَى نَفْسِهِ . وَبَذَلْتُ جَهْدًا كَبِيرًا لِإِقْنَاعِهِ بِأَنِّي مَا زِلْتُ
أُحِبُّهُ بِشِدَّةٍ ، وَلَا أَرْغَبُ مِنْ دُنْيَايَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ أُسْعِدَهُ وَأُسْعِدَ بِهِ .

فِي اليَوْمِ التَّالِي ، عِنْدَمَا رَأَيْتُهُ مُعَوِّقًا هَكَذَا ، سَأَلْتُ مِنْ عَيْنِي الدَّمْعَ ، وَلَكِنِّي
عَوَّلْتُ عَلَى أَنْ أَتَظَاهَرَ بِالْمَرَحِ لِأَرْفَعَ مِنْ رُوحِهِ المَعْنَوِيَّةِ بِقَدْرِ الإِمْكَانِ . وَتَحَدَّثْنَا
لأَيَّامٍ كَثِيرَةً مَعًا . وَأَخْبَرْتُهُ بِكُلِّ مَا حَدَثَ لِي بَعْدَ أَنْ غَادَرْتُ قَصْرَ ثُورْنفيلد .

تَزَوَّجْنَا بَعْدَئِذٍ فِي هُدْوَةٍ . وَكَتَبْتُ خِطَابًا لِابْنَتِي عَمَّتِي - دِيَانَا وَمَارِي -
وَأَخْبَرْتُهُمَا بِهَذَا الزَّوْاجِ ، فَبَارَكْتَاهُ بِكُلِّ رِضَاءٍ وَسُرُورٍ ، وَجَاءَتَا مَعًا فَرِحَتَيْنِ لِلتَّهْنِئَةِ .
وَقَدْ تَزَوَّجَت ابْنَتَا عَمَّتِي بَعْدَ ذَلِكَ بِوَقْتٍ قَصِيرٍ . وَهُمَا تَزُورَانِي الْآنَ كَثِيرًا مَعَ
زَوْجَيْهِمَا وَأَطْفَالِهِمَا . أَمَّا أَخُوهُمَا ، سَانْت جُون ، فَقَدْ كَتَبَ لِي مُهْنًًا مِنَ الهِنْدِ ، بَعْدَ
زَوَاجِي بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ . وَهُوَ يُرْسِلُ لِي خِطَابَاتٍ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ بِأَخْبَارِهِ فِي العَمَلِ ، غَيْرَ
أَنَّهُ لَا يَذْكُرُ إِدْوَاردَ بِقَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ .

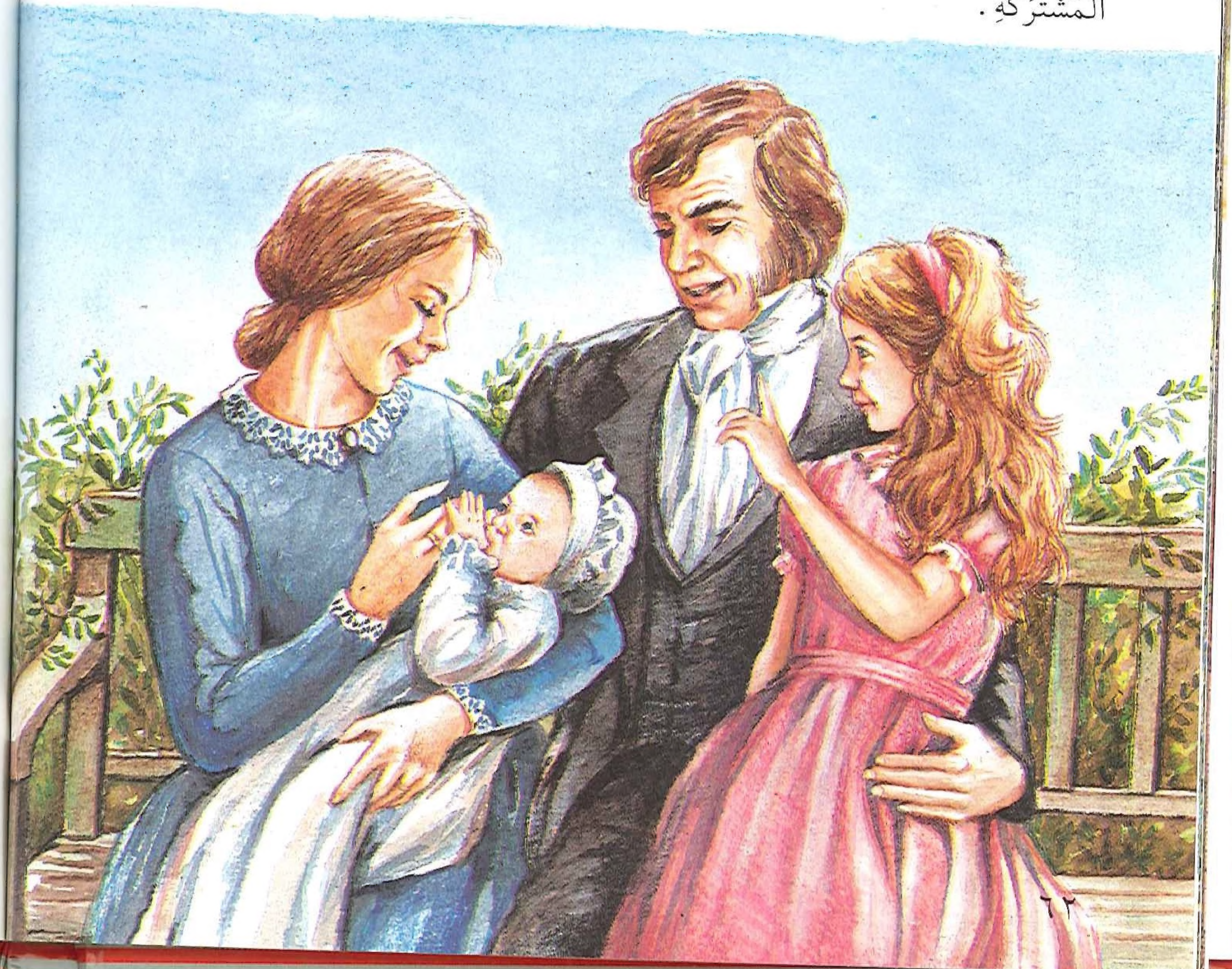
أَرْسَلْنَا أَدِيلَ إِلَى مَدْرَسَةٍ دَاخِلِيَّةٍ قَرِيبَةٍ . وَبِئْسَ عَذَابِي أَنْ أَقُولَ إِنَّ الْفَتَاةَ قَدْ ارْتَاخَتْ
إِلَى هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّرَاسَةِ تَقَدُّمًا كَبِيرًا .

وَوَظَلَ إدوارد فاقِدًا لِلْبَصَرِ لِمُدَّةٍ عَامَيْنِ ، ثُمَّ فَاجَأَنِي ذَاتَ يَوْمٍ بِالسُّؤَالِ : « هَلْ
تَلْبَسِينَ ثَوْبًا أَزْرَقَ ذَا حِلْيَةٍ لَامِعَةٍ حَوْلَ الرَّقَبَةِ ، يَا جِين ؟ »

صَحْتُ فِي فَرَحٍ بِالْبَلِّغِ : « بَلَى ... بَلَى ، يَا إدوارد ! »

أَخْبَرَنِي عِنْدَئِذٍ أَنَّ إِحْدَى عَيْنَيْهِ قَدْ أَخَذَتْ تَعَوُّدًا لِلْإِبْصَارِ بِالتَّدْرِيجِ مُنْذُ بَضْعَةِ
أَشْهُرٍ ! وَبِمُسَاعَدَةِ طَبِيبٍ كَبِيرٍ لِلْعُيُونِ فِي لَنْدَنِ ، أَمَكَّنَ لِإِدْوَارْدَ - خِلَالَ فِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ
- أَنْ يَسْتَعِيدَ إِبْصَارَ هَذِهِ الْعَيْنِ تَمَامًا . وَكَمْ كَانَتْ سَعَادَتِي بَعْدَ ذَلِكَ حِينَ رَأَيْتُهُ يَتَفَرَّسُ
فِي عَيْنِي طِفْلِهِ الْأَوَّلِ اللَّتَيْنِ تُشْبِهَانِ عَيْنِي أَبِيهِ السُّودَاوَيْنِ اللَّامِعَتَيْنِ !

وَبَعْدُ هَلْ لِلْسَّعَادَةِ الزَّوْجِيَّةِ الْحَقَّةِ مِنْ نِهَآيَةٍ ؟ ... لَا أَظُنُّ ، فَحَنُّ لَا نَكْفُ كُلَّ
يَوْمٍ عَنْ تَقْدِيمِ الشُّكْرِ لِلْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي جَمَعَتْنَا مَعًا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْهَائِنَةِ
الْمُشْتَرَكَةِ .



شارلوت برونتي

وُلِدَتْ شارلوت برونتي عام ١٨١٦ في يوركشاير ، وَكَانَ تَرْتِيبُهَا الثَّلَاثَةَ بَيْنَ سِتَّةِ
أَبْنَاءٍ : خَمْسٌ مِنَ الْإِنَاثِ وَوَلَدٌ . وَكَانَ أَبُوهَا - بَاتْرِيكُ برونتي - قَسِيْسًا إِيرْلَنْدِيًّا يَرْعَى
كَنِيسَةً فِي جُزْءٍ وَعَرِ مُتَطَرِّفٍ مِنْ يوركشاير ، أَمَّا أُمُّهَا فَكَانَتْ سَيِّدَةً مِنْ كورنوال . وَفِي
عَامِ ١٨٢٠ تُوُفِّيَتْ الْأُمُّ ، وَانْتَقَلَتِ الْأُسْرَةُ بَعْدَ فِتْرَةٍ وَجِيزَةٍ مِنْ وَفَاتِهَا إِلَى هَاورث
وَكَانَتْ بَلَدَةً صَغِيرَةً تَقَعُ فِي مِنتَقَةٍ مِنَ الْمُسْتَنْقَعَاتِ تَعْلُو سُفُوحَ الثَّلَالِ . وَتَسَلَّمَ الْقَسُّ
الْجَدِيدُ عَمَلَهُ فِي تِلْكَ الْقَرْيَةِ ، وَكَانَ الْمَنْزِلُ الْمُخَصَّصُ لَهُ مُرِيحًا ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ مُعْتِمًا
وَيُطْلُ عَلَى مَقْبَرَةِ الْبَلَدَةِ . وَلَمَّا بَلَغَتْ شارلوت الثَّامِنَةَ مِنْ عُمرِهَا ، غَادَرَتِ الْبَيْتَ مَعَ
أُخْتِهَا الْأَصْغَرِ إِمِيلِي لِتَلْتَحِقًا بِمَدْرَسَةِ جِسْرٍ كَوَان . وَكَانَتْ الْحَيَاةُ فِي تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ
شَدِيدَةً الْقَسْوَةِ ، وَلَمَّا مَاتَتْ أُخْتُ شارلوت - اللَّتَانِ تَكْبُرَانِهَا - بِدَاءِ الدَّرَنِ ، عَادَتْ
شارلوت وَإِمِيلِي إِلَى الْبَيْتِ ... وَكَانَتْ تِلْكَ هِيَ الْمَدْرَسَةُ الَّتِي رَسَمْتُ لَهَا شارلوت
صُورَةً قَاتِمَةً كَثِيْبَةً فِي رَوَايَةِ جِين إِير .

مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ ، تُرِكَ الْأَبْنَاءُ الْأَرْبَعَةُ الْباقُونَ : شارلوت وإميلِي وبرانويل وآن لِقَدَرِهِمْ يُوجِّهُونَ حَيَاتَهُمْ كَيْفَمَا يَشَاءُونَ - وكانت شارلوت أَكْبَرَهُمْ سِنًا . وهكذا أَخَذُوا يَذَرَعُونَ الْأَرْضَ الْفَسِيحَةَ الْمَوْحِشَةَ بِالْقُرْبِ مِنْ مَنْزِلِهِمْ جَيْئَةً وَذَهَابًا ، وَيُنْشِئُونَ عَلَيْهَا مَمَالِكَ مِنْ نَسْجِ الْخِيَالِ ، ثُمَّ يُسْطَرُونَ الرِّوَايَاتِ الْمَفْصَّلَةَ عَنْ أَنْاسٍ يَقْطُنُونَهَا . وَكَانَ لِتِلْكَ الْمُسْتَنْقَعَاتِ الْمُتَرَامِيَةِ أَثَرٌ عَمِيقٌ فِي خِيَالِ وَوِجْدَانِ الْإِخْوَةِ برونْتِي جَمِيعًا ، وَقَدْ تَبَدَّى ذَلِكَ الْأَثَرُ جَلِيًّا فِي كِتَابَاتِهِمْ .

وَعِنْدَمَا بَلَغَتْ شارلوت مَبْلَغَ الشَّبَابِ ، اخْتَارَتْ الْعَمَلَ كْمُرَبِّيةٍ أَطْفَالٍ ، بَيَدَ أَنَّهَا وَجَدَتْ الْحَيَاةَ شاقَّةً جِدًّا آنَ ذَاكَ ، تَسْتَفِرُّ مِنْهَا دَوَاعِي الصَّلَابَةِ وَإِرَادَةِ الصُّمُودِ . وَلاَحَتْ حِينَئِذٍ لِلْأَخَوَاتِ الثَّلَاثِ فِكْرَةُ افْتِتَاحِ مَدْرَسَةٍ خَاصَّةٍ بِهِنَّ ، فَذَهَبَتْ شارلوت وإميلِي إِلَى بروكْسِلَ لِتَعْمَلَا مُدْرَسَتَيْنِ هُنَاكَ وَتُنَمِّيَا مَهَارَتَهُمَا فِي اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ . وَلَكِنَّ شارلوت مَا لَبِثَتْ أَنْ وَاجَهَتْ التَّعَاسَةَ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ حِينَ وَقَعَتْ فِي حُبِّ زَوْجٍ مَخْدُومَتِهَا .

وَلِسُوءِ الْحِطِّ ، فَإِنَّ مَدْرَسَةَ الْأَخَوَاتِ برونْتِي قَدْ انْتَهَتْ إِلَى لَا شَيْءٍ . غَيْرَ أَنَّهُنَّ دَأْبْنَ عَلَى الْكِتَابَةِ ، وَنَجَحْنَ فِي نَشْرِ مَجْمُوعَةٍ مِنْ أَشْعَارِهِنَّ . وَفِي عَامِ ١٨٤٦ قُبِلَتْ بَعْضُ رِوَايَاتِ إميلِي وَأَنْ لِلنَّشْرِ . وَلَكِنَّ شارلوت اضْطُرَّتْ إِلَى الْإِنْتَظَارِ عَامًا آخَرَ قَبْلَ أَنْ تُنْشَرَ رَائِعَتُهَا جِين إِير لِتُلَاقِي نَجَاحًا مُنْقَطِعَ التَّظْيِيرِ .

أَعْقَبَ ذَلِكَ الْفَوْزَ الْبَاهِرَ عَامَانِ مِنَ الْأَسَى وَالْحُزَنِ : فَلَقَدْ مَاتَ بَرَانُوِيلُ وَإِميلِي وَأَنْ جَمِيعًا بِدَاءِ الدَّرَنِ . وَاسْتَمَرَّتْ شارلوت فِي تَأْلِيفِ وَنَشْرِ الرِّوَايَاتِ ، وَأَمْسَتْ ذَائِعَةً الصَّيْتِ فِي الدَّوَائِرِ الْأَدَبِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْفِكْتُورِيِّ ، الْقَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ . وَفِي عَامِ ١٨٥٤ تَزَوَّجَتْ شارلوت مِنْ نيكولَاس بِل - رَاعِي الْأَبْرَشِيَّةِ - وَلَكِنَّهَا مَاتَتْ بَعْدَ زِفَافِهَا بِشُهُورٍ قَلِيلٍ ، وَكَانَتْ فِي الثَّامِنَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنَ الْعُمُرِ .